مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وسلام على أصحابه البررة المنتجبين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين الى قيام يوم الدين.

أما بعد: لايخفى أننا لازلنا بحاجة الى تكريس الجهود ومضاعفتها نحو نشر المفاهيم الأخلاقية والتربوية وترسيخ المفاهيم الإيمانية التي تضمنتها رسالة الإسلام لبناء الفرد بناء فعليا حقيقيا ليكون انطلاقة سليمة لبناء ذلك الكيان الإنساني الشامخ الذي ما هو إلا اللبنة الأولى لبناء مجتمع إسلامي راسخ البنيان، عتيد المراسي.

لذا ومساهمة في ذلك جاءت برامج إذاعة الكفيل صوت المرأة المسلمة كسبيل للوصول الى ذلك وقد أخذت هذه البرامج طريقها الى أسماع الكثيرين عبر أثيرها وعبر شبكة الانترنت العالمية صوتا ولأجل تعميم الفائدة إرتأت الإذاعة إيصال برامجها كتابيا الى أيدي الذين لم يسعفهم الوقت لسماعها وذلك بطباعة بعض من برامجها وإصدارها ككراس.

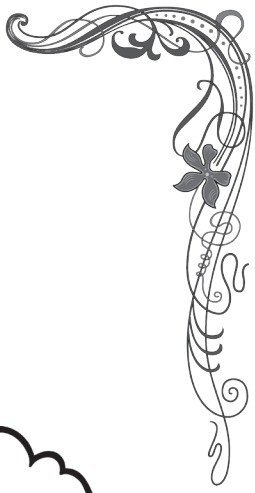

الحلقة الأولى

الصلاة

بما إن الصلاة هي من العبادات لابد من التطرق إلى معنى العبادة

للعبادة أربعة معانٍ:

المعنى الأول: المعنى اللغوي، والمحصّل من كتب اللغة العربية أنّ كلمة «عَبَدَ» تعني: مزيجاً من الطّاعة والخضوع، وكلمة العبادة تعني: العمل الذي يُطاع به المَعبود، كما نجد في مراجع اللغة كأساس البلاغة، ولسان العرب، وتاج العروس... ومن ذلك استعملوا كلمة «عبّد» بالتشديد فقالوا: عبَّد الطريق وعبّد الشخص، بمعنى أخضعَهما وذلّلهما.

وبهذا المعنى لا تشمل العبادة كلّ سلوك الإنسان، ولا يُسمى الإنسان عابداً إلاّ إذا أطاع في عمله معبوداً، إلهاً أو شخصاً، وأمّا إذا كان عمله إطاعة لأمر نفسه مثلاً وليس إطاعة لأَمر أحد فلا يسمّى عبادة.

والمعنى الثاني: المعنى القرآني، أو المفهوم الإسلامي للعبادة، حيث تتّسع دائرة المعنى في مادّة ـ عَبَدَ ـ ومشتقّاتها، فتشمل كلّ أعمال الناس،

فما السلوك البشري في رأي هذا المفهوم إلاّ استجابةً خاضعة.

والإستجابة الخاضعة هي: العبادة، والناس كلّهم جميعاً عابدون، أتقى المؤمنين وأكفر الكافرين في ذلك سواء، فألوان سلوكهم استجابات لأمر آمر، وإنّما الفرق في نوعيّة المعبود، فبعضهم عَبد شخصاً، وبعضهم عَبد هواه، وبعضهم عَبد الشيطان، وبعضهم عَبد وثناً، وبعضهم عَبد الله الواحد الأحد.

يدلّنا على هذا الشمول في مصطلح العبادة الإسلامي:

أ ـ عدّة آياتٍ سمّت الدعوة إلى الإسلام دعوة إلى عبادة الله، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهَّ**﴾ ٦٤ ـ آل عمران، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَّ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾ ١١ ـ الزّمر.

وهذه الدّعوة إلى عبادة الله تعالى تعني، الدعوة إلى إطاعة كافّة المفاهيم والشرائع الإسلامية.

ب ـ قوله تعالى ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا**

تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ٢٨ ـ ٢٩ يونس.

فقد اعتبرت الآيتان إطاعة الأتباع لأَسيادهم عبادة لهم، وإن لم يشعروا بها.

جـ ـ بعض النصوص التي فسّرت معنى العبادة في القرآن الكريم، منها عن الإمام الصادق ﷺ، في تفسير قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ..**﴾، قال: «**أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لَمَا أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون**».

وفي نصّ آخر عنه ﷺ قال: «**من أطاع رجلاً في معصيةٍ فقد عَبده**»

د ـ قوله تعالى: ﴿**يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً**﴾ ٤٤ ـ مريم.

حيث اعتبر عبادة آزر للصّنم عبادة للشيطان، لأنّه المؤثّر الخارجي على النفس، فكان هو المعبود بالحقيقة.

هـ قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ**

﴿وَكِيلاً﴾ ٤٣ ـ الفرقان.

حيث اعتبرت أهواء النفس إلهاً معبوداً.

من هذه الآيات المتقدّمة وغيرها يتّضح، أنّ مصطلح العبادة الإسلامي يشمل كلّ عمل يقوم به الإنسان، حتى ما كان استجابة للشيطان والدوافع والنّوازع النفسيّة، فكلّ أعمال الناس بهذا المعنى عبادات، والعبادة التي دعا إليها الإسلام تعني صدور كافّة أعمال الناس عن أوامر الله تعالى نواهيه.

فالمجتمع المسلم الذي يستجيب لهذه الدعوة ويَصدر في سلوكه عن أحكام الإسلام، مجتمعٌ عابد لله في كل النشاطات اللازمة لحياته، سواء في ذلك تطبيقه لصيغة الحكم الإسلامي، وتصريف الجهاز الحاكم لقضايا الأُمّة، وتطبيقه لنظام الإنتاج والتوزيع وتطبيقه لفرائض الصلاة والصيام والجهاد... إلخ، فكلّها ألوان من العبادات، يتعبّد المسلمون فيها بأمر الله تعالى، ويصدرون فيها عن إرادته.

المعنى الثالث: المعنى الفقهي، فعندما أخذ الفقهاء بدراسة أحكام الشريعة الإسلامية واستنباطها، رأوا أن يقسّموها إلى أقسام متميّزة، عملاً بالتبويب المتّبع في البحث والتأليف، فلاحظوا أنّ من الواجبات

الإسلامية ما يَشترط فيها الإسلام أن يكون الدافع إليها نيّة القُربة إلى الله عزّ وجلّ، أو نيّة امتثال أمره... إلخ، أي أن تصدر عن وعي والتفات لتكليف الله تعالى بهذا الواجب، وإلاّ اعتُبرت باطلة ووجب إعادتها أو قضاؤها.

ومنها واجبات لم يَشترط فيها الإسلام مثل هذا الاستحضار، بل طلب مجرّد حصولها بقطع النّظر عن الدافع إليها، فاختاروا لهذا القسم الثاني اسم «الواجبات التوصّليّة»، لأنّ المطلوب مجرّد التوصّل إليها، وكان نصيب القسم الأوّل «الواجبات العباديّة، أو العبادات»، كالصلاة، والصيام، والصدقات، والخُمس...

المعنى الرابع: المعنى العُرفي للعبادة، الذي يعني: الصلاة، والصيام، والحج، والدعاء، والتسبيح، وما شابه... وهذا المعنى للعبادة والعابد أضيق المعاني المتقدّمة دائرةً على الإطلاق، وهو أقرب إلى المعنى اللغوي.

أمّا بالقياس إلى المعنى القرآني الشامل، فنسبته واضحة، وأمّا بالقياس إلى المعنى الفقهي، فإنّ واجب الضرائب الماليّة «الزكاة والخُمس» والذي هو واجب عباديّ بالاصطلاح الفقهي ـ لأنّه يُشترط فيه قصد القُربة ـ لا يشمله هذا المعنى العرفي... هذا وربما نجد استعمال

العبادة في بعض أحاديث السنّة الشريفة بالمعنى العرفي، وهو استعمال للكلمة في مصداقها البارز لدى الناس.

أمّا لماذا تقلّص مفهوم العبادة الإسلامي في أذهان المسلمين إلى المعنى العرفيّ الضيّق؟! فمردّ ذلك بشكل أساسي إلى فترة الانحطاط الفكري العام الذي أصاب المسلمين، فقلّص العديد من مفاهيم الإسلام في أذهانهم، وحلّت محلّها مفاهيم ضيّقة جامدة أو مفاهيم مُتخلّفة، حتى غزتْنا المفاهيم الغربيّة المعادية للإسلام .

وبذل أعداؤنا المستعمرون المتسلّطون وعملاؤهم من حكّام الأمّة جهوداً متواصلة في تحريف وتشويه وإقصاء مفاهيم الإسلام، وتربية أبناء الأمّة عليها بمناهجهم التربويّة المسمومة ووسائل إعلامهم المُختلفة.

وقد وجد أعداء الإسلام في شبهة المعنى العرفي للعبادة مَدخلاً لإبعاد الإسلام والمسلمين عن مقاومة سيطرتهم، فقالوا: ما دام الإسلام دعوةٌ إلى عبادة الله، وعبادة الله هي القيام بالعبادات الإسلامية...

فما عليكم أيّها المسلمون إلاّ أن تعبدوا ربّكم بكلّ حريّتكم، فتصوموا، وتحجّوا، وتصلّوا، وتقرأوا القرآن ما بدا لكم، وتعيشوا مع

الله في جوّ روحي وديع، وتكفّوا إسلامكم عن حركة الحياة في المصنع، والمتجر، والحقل، والموقف معنا، فإنّ ذلك لا يتّصل بدعوة عبادة الله التي هي دعوة دينكم.

كم يحلوا لأعداء ديننا وأمّتنا أن نتنازل عن مفهوم التعّبد الإسلامي، الذي يعني التعّبد لله بإقامة حياة الأمّة كلاًّ على أساس هُداه وتشريعه... ونحجر مفهوم التعّبد في جوانب معيّنة معزولة عن الحياة.

يتناسى هؤلاء أنّ الله تعالى قال لرسوله ﷺ:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ...﴾النساء-١٠٥، ولم يَقل له: إنّا أنزلنا إليك الكتاب لتُهرب أنت ومن اتّبعك من واقع الحياة وتعيشوا في جوّ روحي حالم، وبذلك تعبدون الله.

فلو كانت دعوة الرسول ﷺ، إلى عبادة الله عزّ وجلّ تعني ما يُريده لنا هؤلاء المستعمرون... إذاً لاتّخذ الرسول سبيله بمن تبعه في أرض من أرض الله وقضوا حياتهم في «عبادة الله»، وما تجشّموا بأمر الله هذه الجهود والحروب والمجابهات.

إنّ عبادة الله في مفهوم الإسلام إنّما هي مع الصلاة والصيام،

وبالصلاة والصيام، جهاد بمنهج تغييري شامل لإقامة أوضاع جديدة في مختلف شؤون الحياة.

وتشريعات الإسلام ـ من حيث صلتها بعبادة الله ـ على درجةٍ واحدة، من دون فرقٍ بين أحكام توزيع الثروة، وأحكام جهاد أعداء الله ورفع سيطرتهم عن الأمّة، وأحكام الصلاة، والصيام، وتلاوة القرآن... فجميعها أحكام للحياة لاستقرار صلاحها وسعادتها، وجميعها أحكام يتلّقاها المجتمع المسلم من الله ويتعّبد له بتطبيقها... وبالتالي فكلّها عبادات لله، وبكلّها تتّسق إنسانية هذا الإنسان وتسير قِدماً في تكامُلها.

ومن طريف حكمة الله عزّ وجلّ أن تكون الواجبات التي اشترط فيها نيّة القُربة أنواعاً مختلفة... فكما أنّ منها: الصلاة وهي عمل خُشوعي تربوي . كذلك منها: الصيام، وهو فريضة امتناع وكفّ للنفس عن العادات اللصيقة بالإنسان . ومنها: الحجّ الذي هو سفر إلى أرض الله المقدّسة وأداء لمناسك معيّنة. ومنها: أداء الصدقات والخُمس، وهما ضريبتان ماليّتان. ومنها الأغتسال والتوضؤ، وهما عملان تطهيريّان...

ممّا يدلّنا على أنّ الله تعالى يُريد للإنسان أنّ يعيش في قسم متنّوع من

أعماله، حالة الوعي لربّه والأستحضار لصدوره عن أمره وهداه.

وحينما ننظر إلى الصلاة ـ وهو موضوع برنامجنا ـ نجد أنّها من فئةِ التعّبدات التي اشترط فيها الإسلام أن تؤدّى عن وعيٍ لله، وصدور عن أمره وإرادته «نيّة القُربة»، وهي ميزة لهذه الفريضة تُضاف إلى مِيَز من مقوّماتها فترتفع بها إلى حدّ الإبداع، وبأثرها في نفس الإنسان وحياته إلى حدّ الإعجاز... .

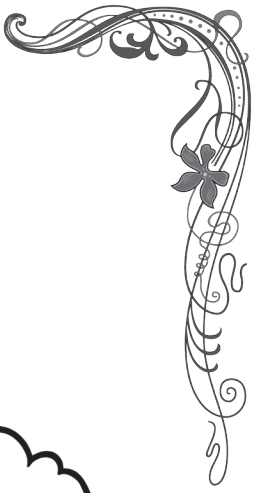

الحلقة الثانية

أصل كلمة الصلاة

تذكر مصادر اللغة العربية أنّ لفظة الصلاة تعني: الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة، ويذكر بعض اللغويين أنّها مشتقّة من «صلّى واصطلى» بمعنى لَزِم الشيء، ويذكر بعضهم أنّها مشتقّة من «صلى» بمعنى أزال عن نفسه الصّلى، أي النار.

ويرى بعضهم أنّ أصل الكلمة عربي، وأنّ هذه العبادة المُشتملة على الركوع والسجود كانت معروفة لدى العرب... بينما يرى بعضهم أنّ أصلها عبريّ، من لفظة ـ صلوتا ـ بمعنى مكان الصلاة.

والـذي أُرجّحه أنّ الصلاة في الأصل كلمة بابليّة جُعلت اسماً لعبادة معيّنة في شريعة إبراهيم ﷺ، وأنّها دخلت إلى اللغة العربية بهجرة إسماعيل عليه السلام، وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم أنّه أسكن من ذريّته عند البيت المحرّم ليُقيموا الصلاة، فلا بدّ أنّهم أقاموها وعلّموها، فدخل اسمها في العربية.

وأمّا لفظة ـ صلوتا وصلوت ـ العبرانيّة بمعنى مكان الصلاة،

فهي من نفس الأصل البابلي، وقد ورد جمعها في القرآن الكريم على صلوات، قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللهَّ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لُهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهَّ كَثِيراً**﴾ ٤٠ ـ الحج. وبهذا يكون المعنى الأساسي لكلمة الصّلاة هو: عبادة إسماعيل﵇، التي يُفهم من القرآن الكريم أنّها كانت تتضمّن ركوعاً وسجوداً وتلاوة، قال عزّ وجلّ: ﴿**وَعَهِدْنَا إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾، ١٢٥ ـ البقرة.

ومن القريب أنّ التطوّر الذي طرأ على معنى الكلمة بعد إسماعيل﵇، قد جعلها تفقد اختصاصها بتلك العبادة، التي ضُيّعت فيما ضُيّع من شريعة إبراهيم ﵇، وأصبحت الصلاة اسماً لكلّ تعبّد وذكْرٍ بين يدي إله... ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلى**﴾ ٩ ـ ١٠ العَلق. حيث إنّ هذه الآية من أوائل ما خُوطب به المجتمع المكّي من القرآن، ولم تكن الصلاة الإسلامية معروفة أو مشرّعة آنذاك.

أمّا أن يكون المعنى الذي استقرّت عليه الكلمة قبل الإسلام هو: مُطلق الدعاء، بحيث يصحّ لدى العربيّ أن يُقال: صلّيتُ أن يردّ الله عليّ ضالّتي، بمعنى: دعوتُ فهو بعيد، وكذلك أن يكون معناها: مطلق

التعظيم، أو مطلق الرحمة والبركة...

وأمّا صحّة استعمالها عند العرب بهذه المعاني، فهو بملاحظة أن ذكر الإنسان للإله يتضمّن عادة الدعاء والتعظيم ويُطلب به الرحمة والبركة.

وبهذا تكون تسمية العبادة الإسلامية باسم «الصلاة» من باب تسمية الخاصّ باسم العامّ، وليس من باب تسمية الكلّ باسم الجزء، كما هو شائع بين اللغويين.

إستعمالات كلمة الصّلاة في الإسلام

إستعملت كلمة الصلاة في القرآن الكريم والسنّة الشريفة في عدّة معانٍ:

الأول منها: المعنى اللغوي: الذي رجّحنا أنّه ذكْر الإنسان للإله في مقام التعبّد، وبه جاء قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً صَلى**﴾ العلق وقوله تعالى: ﴿**وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**﴾ ٤١ ـ النّور.

فالصلاة في هذه الآيات خاصّة، بملاحظة الفاء في قوله تعالى: ﴿**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلى**﴾، بمعنى: ذكر الله تعالى في مقام التعبّد.

اما الثاني منها: المعنى الشّرعي: وهو الصلاة الإسلامية المعيّنة، وبه جاءت أكثر النصوص الإسلامية، كقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ**﴾،وقول الرسول ﷺ: «**الصّلاة عمود الدّين**».

والثالث منها: صلاة الله تعالى على النبيّ ﷺ، وعلى المؤمنين: وهي بمعنى الرحمة والبركة قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾ ٤٣ ـ الأحزاب. وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ ﴿ **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ ١٥٧ ـ البقرة.

اما المعنى الرابع: صلاة المخلوق على المخلوق: كصلاة الإنسان على الإنسان الحيّ والميّت، وصلاته على الملائكة، وصلاة الملائكة على الناس، وهي بمعنى: الطلب من الله تعالى أن يُبارك على المدعوّ له.

فعن علي بن أبي حمزة، عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام، عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾؟ فقال: «**الصّلاة من الله عزّ وجلّ رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس دعاء، وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيما﴾، فإنّه يعني التسليم له فيما ورد عنه...**».

وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾ ١٠٣ ـ التوبة، أي: أدعُ الله عزّ وجلّ أن يبارك عليهم، وهذه الصلاة جائزة على كلّ المؤمنين، وخاصّة الأنبياء والأئمّة والملائكة عليهم السلام.

وقد تُستعمل صلاة المخلوق على المخلوق بمعنى: أداء الصلاة بين يدي الله عزّ وجلّ، كأنّها نيابةٌ عن الغير لإحداث الرحمة والبركة عليه، ومنها صلاة النافلة عن الأحياء والأموات . ومنها الصلاة على الميّت كما في قوله تعالى ـ ناهياً رسوله صلى الله عليه وآله، أن يصلّي على المنافقين ـ: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾ ٨٤ ـ التوبة.

والمعنى المشهور للصلاة هو: الصلاة الشرعيّة التي نحن بصددها، وهو المعنى الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة «الصلاة»، ولذلك أصبحت المعاني الأُخر تحتاج إلى قرينة تدلّ على أنّها مقصودةُ الكلمة.

يُفهم من عدد من النصوص الإسلامية، أنّ الدين الإلهي بدأ مع نُشوء المجتمع الإنساني الأوّل، على يد آدم عليه السلام، على شكل مفاهيم وتعاليم إلهيّة، ثمّ استمر في هذه المرحة التمهيديّة مع نمو المجتمع الإنساني، وكان إدريس عليه السلام، من أنبياء هذه المرحلة. حتّى إذا تكوّنت

الحضارة الأُولى، دخل الدين على عهد نوح ﷺ، المرحلة الأُولى، وأخذ صفة عقيدة وشريعة مُتكاملة، تفي بحاجات العلاقات والأوضاع الإجتماعية المُستجدّة التي طرأ عليها التشعّب والتعقيد: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً**﴾ ١٣ ـ الشورى.

وقد أقام نبيّ الله نوح ﷺ، المجتمع الإنساني بعد الطُّوفان على هذه الشريعة، والصُّحف الإلهيّة التي أُنزلت عليه، وجاء الأنبياء من بعد نوح ﷺ، يدعون إلى شريعته وصُحفه، وكان من أنبياء هذه المرحلة هود وصالح ﷺ، في حضارتي عادٍ وثمود.

ثمّ دخل الدين المرحة الثانية على يد إبراهيم ﷺ، والثالثة على يد موسى ﷺ، والرابعة على يد عيسى ﷺ... ثمّ تنزّل بصيغته النهائية في المرحة الخامسة على يد خَاتم النبيين محمّد ﷺ.

ونُلاحظ في هذه الخطّة المرحليّة المتدرّجة في تنزيل الدين، أنّها تُراعي نموّ الاستيعاب، وتفتّح الآفاق الفكريّة والنفسيّة للأجيال الإنسانيّة، هذا النمو الذي يتوقّف على المرور بالتجارب الرساليّة والإجتماعية والحضاريّة، ومعايشة نتائجها وأخطائها وصوابها... وهذه سنّته عزّ وجلّ في أمور الكون والناس.

فإبراهيم أبو النبوّات ﷺ، كان يـؤدّي الصلاة ويحـرص عليها ويدعوا ربّه: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾، ٤٠ ـ إبراهيم. وإسماعيل ﷺ، كان على رسالة أبيه: ﴿**وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ**﴾، ٥٥ ـ مريم. وشعيب ﷺ، كان يُعيّره قومه بصلاته: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾ ٨٧ ـ هود. وموسى وهارون: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ**﴾ ٨٧ ـ يونس. ولقمان الحكيم رضي الله عنه، كان يَعي أهميّة الصلاة، ويوصي ابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ ١٧ ـ لقمان. وبنو إسرائيل تكفّل الله لهم بالْعَون، بشرط أن يُقيموا الصلاة: ﴿**وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي**﴾ ١٢ ـ المائدة. وعيسى ﷺ، حينما كلّم الناس في المَهد قال: ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً**﴾ ٣٠ ـ مريم.

هذا الموكب الإنساني الواعي مُنذ أقدم التاريخ، وفي أمكنة مُختلفة من الأرض، وفي بيئات وظروف اجتماعيّة وحضاريّة متنوّعة... كان مكلّفاً بالصلاة، وكان لالتزامه بهذه الفريضة المهمّة في آفاقه الفكريّة والنفسيّة، وفي انجازاته الضخمة في حياة البشريّة... أكبر التأثير.

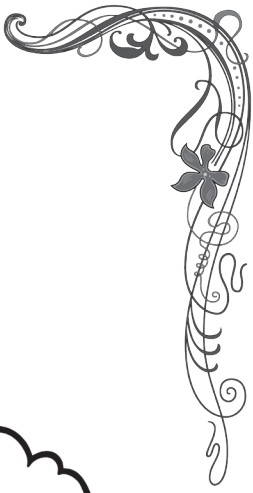

الحلقة الثالثة

الصلاة واجبة

حينما يصنّف الإسلام عملاً في قسم «الواجبات»، فذلك يعني أنّه يحكم بضرورة هذا العمل، وحينما يَعتبر الصلاة واحدة من القواعد التي يُقيم عليها منْهجه السلوكي، فذلك يعني أنّها من صنف الضرورات الأُولى لحياة الإنسان. فمن أي الحقائق تنبع ضرورة هذا النشاط اليومي في رأي الإسلام؟ ولماذا كان من الضروري للإنسان أن يقوم بعمليّة تعبّد رَتِيبة خمْس مرّات كلّ يوم ؟!

إنّ الصلاة الإسلامية مع ما يلزمها من تطهّر تستغرق من وقت الإنسان يوميّاً مدّة ساعةٍ تقريباً، وبما أنّ أوقاتها موزّعة على اليوم، تُصبح الساعة ساعتين، هذا سوى العناء النفسي الحاصل من هذا الالتزام الدائم، أمّا إذا أضفنا إليها الصلوات المستحبة ـ النوافل ـ فقد استهلكنا من وقت الإنسان ثلاث أو أربع ساعات كل يوم.

وإذا أخذنا هذا الرقم بذهنيّة الصين المشبّعة بتعاليم الثورة الثقافيّة، فستكون النتيجة خسارة ملايين ومليارات من ساعات الإنتاج والدخل

القومي!

قد نُقنع أصحاب الاتجـاه الكمّي الاقتصادي بخطأ النظرة الميكانيكيّة الكميّة لعلم الإنسان وإنتاجه، وصحّة النظرة الإنسانية للإنسان، والنظرة النوعيّة لإنتاجه قبل النظرة الكميّة أو معها... وبأنّ ملايين الساعات التي يصرفها المجتمع المصلّي يوفّرها بالإقلاع عن الخمور والمخدّرات والإسراف واللهو...

قد نُقنع هؤلاء بعدم وجود كارثة على الدخل القومي من الصلاة... ولكنّ السؤال يبقى: هل من ضرورة لإنفاق هذا الوقت، وتحمّل هذا العناء اليومي من أجل الصلاة ؟!.

إنّ الإجابة على سؤال «لماذا الصلاة»، يصعُب أن تكون مُقنعة لغير المسلم، كما يصعب أن تكون مقنعة للمسلم البعيد عن أجواء الإسلام وعن المسلمين المصلّين، فالاقتناع الكامل بالإجابة يتوقّف على فهم النظرة الإسلامية للكون والإنسان، وعلى لمس تأثير الصلاة في النفس والناس.

لو أجبنا على سؤال: لماذا الصلاة كلّ يوم: بأنّه يشبه السؤال: لماذا الطعام للإنسان كلّ يوم ؟

❁فكما إنّ الطعام ضرورة دائمة للجسم، فالصلاة ضرورة دائمة للعقل والنفس، أو كما يقال: غذاء للروح.

❁ أو بأنّ الصلاة: شُحنة يوميّة للشخصيّة، كشحنة الوقود للسيّارة.

❁ أو بأنّ الصلاة: ارتباط يومي ضروري للإنسان الكائن المحدود بالله الخالق المطلق.

❁ أو بأنّ الصلاة: إعادة توازن يوميّة لنفس الإنسان ممّا يطرأ عليها من اختلال، كما إنّ الحجّ عمليّة إعادة توازن لشخصيّة الإنسان ووجوده ككلّ.

❁ أو بأنّ الصلاة: تغسل النفس يوميّاً من أدران الذنوب وتَحلّ عُقد النفس الحاصلة من الذنوب، «تحتّ الذنوب حتّ الورق، وتُطْلقها إطلاق الربق».

❁ أو بأنّ الصلاة: تنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر.

❁ أو بأنّ الصلاة: معراج المؤمن، وقُربان كلّ تقي...

فسيكون وقْع هذه الإجابات متفاوتاً بين غير المسلم وبينه، إذا كان له صديق مسلم مصلّ، وبين المسلم البعيد عن أجواء الإسلام

والمصلّين، والمسلم القريب من هذه الأجواء، وبين المسلم الساهي عن صلاته، أو المُلتزم بها التزاماً شكليّاً وهو مُستغرق في الدنيا، وبين الذي له نصيب من آفاق العقيدة الإسلامية، وهو يخشع في صلاته أحياناً ويتفكّر... إلخ، وهذا التفاوت ليس في درجة الاقتناع النفسي فحسب، بل في الفهم الفكري العقلي لهذه الإجابات أيضاً.

وما ذلك إلاّ لأنّ الاقتناع بضرورة الصلاة من ناحية نظريّة ونفسيّة معاً، يتوقّف على الاقتناع بالله تعالى والغيب والآخرة، والمنهج السلوكي الإسلامي الذي يتبنّى ضرورة أن يُمارس الإنسان حياته في هذا الإطار وهذه الآفاق، ويرتبط بعبادات ومفاهيم وأحكام على مدار أيّامه تشدّه إليها وتمنعه من الانحراف عنها...

كما يتوقّف على التجربة، تجربة أداء الصلاة ولمس تأثيرها في نفسه، والمقارنة بين شخصيّته قبلها وبعدها، أو على المقارنة بين شخصيّة المصلّي وشخصيّة تارك الصلاة.

و من يريد الإقتناع العميق بضرورة الصلاة للإنسان، عليه أن يتّجه إلى حالة ترك الصلاة ومدى آثارها الرهيبة على الحالة العقليّة، والنفسيّة، والسلوكيّة، والحضاريّة في شخصيّة الإنسان والمجتمع.

إنّ حقيقة: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ المؤمنون-١-٢ وحقيقة: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾العنكبوت-٤٥ وحقيقة: ﴿**إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ**﴾ المعارج/ ١٩-٢٢ وحقيقة: ﴿**إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾ المزمل٧-٨ وحقيقة: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾الأسراء-٧٩.

وغيرها التي قدّمها لنا الإسلام عن الدور الإيجابي للصلاة... كلّها حقائق عميقة وملموسة ومُقنعة، ومعطيات الصلاة منها وفيرة.

ولكن الأكثر إقناعاً لمن يُناقش في ضرورة الصلاة هو: حقيقة الهَلع والهوائيّة في الشخصيّة، وحالة الفُحش والمنكر، وحالة اتباع الشهوات... حالة تارك الصلاة البئيسة المفصومة عن ربّها، والمستغرقة في ظُلمات طينها وحيوانيّتها.

إنّ دراسة الدور السلبي لترك الصلاة في الشخصية والمجتمع، تبقى أشدّ في الإقناع، خاصّة لتاركي الصلاة، وإن كانت صورها قاتمة غير محبّبة... وإنّ الحقائق التي قدّمها لنا الإسلام عنها كثيرة وحيويّة.

ومن نماذجها عن النبيﷺ، قال: «**لا يزال الشيطان ذَعِراً من المؤمن، ما حافظ على مواقيت الصّلوات الخَمْس، فإذا ضيّعهنّ اجترأ عليه، فأدخله في العظائم**».

وجاء إليه رجل فقال: يا رسول الله أوصني ؟ فقالﷺ «**لا تَدَع الصّلاة متعمداً، فإنّ من تركها متعمّداً فقد بَرِئت منه ملّة الإسلام**».

ولعلّ هذه الحقيقة هي السبب في أنّ نصوص الإسلام التي تحذّر من سلبيّة وخطورة ترك الصلاة وتاركي الصلاة، أكثر من تلك التي تبيّن إيجابيّة الصلاة وتأثيرها.

الصّلاة ومعالجة النسيان:

كيف يُعالج الإسلام «حالة النسيان»، الخطيرة في الإنسان ؟

الصلاة يأتي دورها في معالجة «النسيان السلوكي» الذي يتعرّض له الإنسان بعد تذكّره العقيدي وإيمانه بالله تعالى ورسله واليوم الآخر، فيُعرض عن تطبيق شريعته و«ينسى» أوامر الله ونواهيه في سلوكه.

أي إنّ دور الصلاة هو: في معالجة حالة الانحراف في المسلمين، أو الوقاية منها وهو دور هامّ جدّاً، لأنّ الانتقال من الكفر إلى الإسلام، من حالة النسيان الكبرى إلى التذكّر العقيدي، يبقى انتقالاً شكليّاً ما لم

يتمّ معه التذكّر السلوكي.

إذا نظرنا إلى المجتمع الإسلامي، نجد أنّ الضمانات النسبيّة التي يعتمدها الإسلام لتطبيق أحكامه وقوانينه، متفوّقة في الكمّ والنوعيّة على الضمانات التي تعتمدها كلّ المبادئ المعروفة، بما فيها أحدث المبادئ والتشريعات في إقامة المجتمعات والدول...

فهناك ضمانة السلطة، ففي الحديث الشريف: أما إنّه لا بدّ للناس من سلطان: «**إنّ الله لَيَزَعّ بالسلطان ما لا يَزَعّ بالقرآن**...»، وهذه الضمانة مشتركة في أصلها بين الإسلام وغيره.

وهناك ضمانة ضمير التقوى في المسلم، ويُقابلها في المبادئ الأُخرى ما تستطيع أن تحقّقه في نفس أفرادها من ضمير بقيمها إن كانت، وبقايا الفطرة.

وهناك ضمانة المجتمع، المتمثّلة بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي يتفرّد بها الإسلام، والتي هي مشاركة شعبيّة كاملة ومسؤوليّة عن سلوك الدولة والأفراد.

هذه الضمانات النسبيّة الثلاث تشكّل أجواءً مهمّة تحيط بالإنسان المسلم، فتعالج فيه حالة «النسيان السلوكي»، وتذكّره بالسلوك القويم، ولكنّ موقع الصلاة من هذه الضمانات ـ كما تدلّنا نصوص الإسلام ـ يأتي

في القلب منها جميعاً، ففي الحديث الشريف: «**ما أعلمُ شيئاً ـ بعد المعرفة ـ أفضل من هذه الصلاة**». وحتى لو قلنا بأنّ كلّ الضمانات الإسلامية لاستقامة المسلمين ترجع إلى ضمير التقوى في المسلم، لأنّ الفرد هو اللبْنة الأساسية في المجتمع، والمجتمع ليس إلاّ الأفراد والعلاقات الناشئة عنهم...

فإنّ الصلاة في الإسلام تبقى هي القلب والجوهر لأعمال المسلم كلّها... فلماذا كانت قلب التقوى وخير أعمال المسلم بعد الإيمان ؟

إنّ دُفعة التذكّر التي تعطيها الصلاة ذات قيمة تذكيريّة عالية... لأنّها تتركّز على تذكير الإنسان وربطه بالله عزّ وجلّ... وبما إنّ القاعدة المركزيّة في الإسلام هي: الاعتقاد بالله عزّ وجلّ مُنزل هذا الدين، وبما إنّ كافّة مفاهيم الإسلام وأحكامه مبنيّة ومتفرّعة عن الاعتقاد بالله تعالى وصادرة عنه، ومبلَّغة بواسطة رسولهﷺ.

فإن استذكر الإنسان هذه الحقيقة العظمى باستمرار واستحضرها وترسّخت في فكره وقلبه... فقد أصبح أكثر ما يكون استعداداً للانسجام معها، والابتعاد عمّا يخالفها، بل وأمكن أن يتحوّل استذكاره لله تعالى إلى حضور موجّه دائم، يعيش المسلم معه ويطبّق توجيهه في كلّ الأمور.

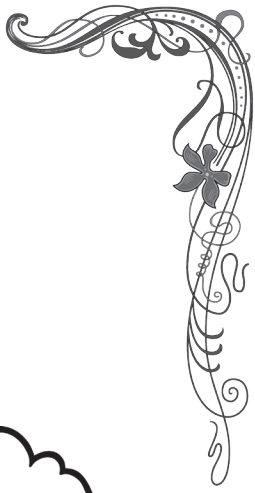

الحلقة الرابعة

الإستذكار

صحيح أنّ الالتزام بتذكّر الله تعالى وأحكامه في سلوك الإنسان أمر صعب، فهو يملك عوامل إيجاب كثيرة في فطرة الإنسان ونفسه وحياته وعقيدته... لكنّ المشاغل والمُلهيات والمشوّشات في حياة الإنسان تكاد تكون أكثر وأكبر... خاصّة إذا كانت حياة المسلم حافلة بالظلم والآلام، والمتاعب والهموم والمغريات، كما في عصرنا الحاضر...

إلاّ إنّ عمليّة الاستذكار برغم الظروف الداخليّة والخارجيّة المحيطة، تبقى في رأي الإسلام صعوبة لا بدّ منها، لأنّها ضرورة معاناة الإنسان في تكامله، ولا بديّة نَظم أعماله في خطّ الإسلام وأحكام شريعته.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ألا أُخبرك بأشدّ ما فرض الله على خلقه، [ثلاث] قلت بلى، قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك أخاك، وذكر الله في كلّ موطن، أما إنّي لا أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله عزّ وجلّ**

في كلّ موطن، إذا هجمتَ على طاعة أو معصية»

فإستذكار الله تعالى في السلوك صعوبةٌ تقع في صف صعوبة الإنتصار على الذات، وصعوبة حبّ الناس ومواساتهم... ومن أجل هذه الصعوبة الضرورية غَمر الله عزّ وجلّ الإنسان بالإشفاق، ووضع له التشريعات التي تذلّلها وتيسّرها

وقد تمثّل الإشفاق:

بغفران السيئات، والتوبة على التائبين.

وبجعل السيّئة بواحدة، والحسنة بعشرة أمثالها.

وبمواصلة إرسال المذكّرين من الأنبياء والرسل.

وبالكتب المنزلة التي يسمّيها عزّ وجلّ بالذكر، وبوجود الأئمّة والعلماء في كلّ جيل...

وبكثير من ألطافه عزّ وجلّ...

وتمثّلت التشريعات التربويّة ـ مضافاً على عنصر تربية المسلم ـ على ذكر الله تعالى في كلّ مفاهيم الإسلام وتشريعاته، بتشريعين خاصّين:

أحدهما تشريع التفكير: والمقصود به التأمّل العقلي والشعوري في جميع الأشياء والإستنتاج منها، قال عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ ١٩٠ ـ ١٩١ ـ آل عمران.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله، وفي قدرته**».

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ**»، يقصد عليه السلام، كثرة الصلاة والصيام بدون تفكّر.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ التفكّر يدعوا إلى البرّ والعمل به**» والنصوص الإسلاميّة من القرآن والسنّة التي تؤكّد على التفكير وإعمال العقل، وتُشيد بهذه العبادة وتندّد بمن لا يؤدّيها... تبلغ في وفْرتها مادّةً لكتاب.

وثـاني التشريعين: الصلاة اليوميّة، فأكبر عمليّة تركيز عقلي

وشعوري لإستذكار الله وأحكامه في عملنا اليومي، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ ٤٥ ـ العنكبوت.

نرى أنّه سبحانه يعبّر عن هذه الحقيقة بيسر وبداهة، فيسمّي الصلاة «ذكراً» لوجوده وتوجيهاته في الأمور، ويُفهمنا عزّ وجلّ أن تذكّر وجوده الذي هو: القاعدة الأساس لمنهجه الكامل، هو: طاقةُ الدفع لاستقامة المسيرة والضمان من الإسفاف والانحراف، وإنّ هذا التذكّر ـ إذا حافظنا على حيوّيته ـ أكبر فاعليّة في السلوك نحو الأهداف الإسلامية من كلّ مؤثّرات الانحراف على شخصيّة المسلم.

وبيُسر وبداهةٍ يوضّح لنا الرسول الذي أوتي جوامع الكَلِم صلّى، موقع الصلاة في الحفاظ على نضَارة شخصيّة المسلم من المؤثّرات اليوميّة المختلفة، في مَثل بليغٍ يقول فيه:

«**أيسّر أحدكم أن تكون على باب داره حمة، يغتسل منها كلّ يوم خمس مرّات، فلا يبقى من دَرَنهِ شيء ؟ قالوا: نعم، قال: صلّى فإنّها الصلوات الخَمس**»، كذلك هو حال النفس البشريّة مع المؤثّرات السلبيّة الداخليّة والخارجيّة... إنّها لا تلبث نصف نهار حتى تشوب

نقاءها الأدران، حتى لتكاد تحجب عنها إحساسها بالله تعالى، ومفاهيم دينه وأحكامه، فتحتاج إلى اغتسال بالنبع المعدني الحارّ: الصلاة، ليعود إليها نقاؤها من جديد ويعود تذكّرها وهداها غضّاً نضِراً، فتقطع شوطاً آخر، مستقيمةً في السلوك والأهداف.

عن الإمام الصادق والإمام الرضا عليهما السلام، في جواب السؤال عن فائدة الصلاة ـ مع أنّ فيها مشغلةً للناس عن حوائجهم، ومتعبة لهم في أبدانهم على حدّ تعبير السائل ـ: «إنّ علّة الصلاة، أنّها إقرار بالربوبيّة... والمداومة على ذكر الله عزّ وجلّ بالليل والنهار، لئلا ينسى العبد سيّده ومدبّره وخالقه، فَيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي، ومانعاً له عن أنواع الفساد».

إنّ الحاجة إلى فكرة مركزيّة تملأ ذهن الإنسان ومشاعره، وتدفعه إلى العمل وتوجّه سلوكه، حاجة إنسانيّة يشعر بضرورتها كلّ الناس، بل نستطيع القول أنّه لا يوجد إنسان إلاّ ويحمل فكرة مركزيّة تدفعه إلى العمل وتوجّه سلوكه، أيّاً كانت هذه الفكرة.

والإسلام لم يضف هذه الحاجة على حياة الإنسان ولكنّه لبّاها، ودعا إلى اعتماد فكرة توحيد الله عزّ وجلّ قاعدة تدفع إلى العمل وتوجهه...

بينما اعتمدت المبادئ الأُخرى أفكاراً أخرى جعلتها القاعدة والمحور، أو تركت الإنسان يتّخذ من ذاته وهواه فكرة مركزيّة ودافعاً وهدفاً.

فإنّ العيش بطريقة أيّ مبدأ لا تتمّ للإنسان إلاّ بأن يستحضر في عقله ونفسه «القاعدة المركزيّة» لذلك المبدأ ويجعلها هي الدافع له لأهدافه والموجّه لأعماله...

ومن الفارق بين المبادئ في نوعيّة أفكارها المركزيّة التي تعمل لتركيزها في أذهان الناس، تَنتج الفوارق في تجسيد طريق العيش المطلوبة للمبدأ... تبعاً لصحّة تلك الفكرة وخطأها، وسعتها وضيقها، وصحّة انبثاق المفاهيم والتفاصيل لحياة الإنسان عنها، وتبعاً لانسجامها مع تكوين الإنسان وفطرته، وصلاحيتها لدفع الإنسان نحو الهدف وتقويم سلوكه بمفاهيمها.

إنّ مَثل الإنسان والصلاة، كمثل راكب في سفينة، وليس لديه ما يعيّن له اتّجاهه إلاّ مواقع النجوم، وهو مصاب بداء نسيان شديد بسبب طبيعته وظروفه، إلى حدّ أنّه ربما ينسى اتّجاهه الذي حدّده قبل خمسين ميلاً؟!

أفَترى يستقيم أمر هذا الرجل إلاّ أن يقف مرّة كلّ أربعين ميلاً،

يطلّ من نافذته ويتأمّل الأُفق فيعيّن اتّجاهه من جديد ؟ كذلك الإنسان والصلاة حرفاً بحرف.

إنّ احتمال ضياع الإنسان في بحر الحياة أضعاف احتمال ضياعه في بحر الماء، وليس لديه ما يعيّن له اتّجاهه إلاّ هَدْي خالقه عزّ وجلّ، وداء نسيانه لربّه وأهدافه يصل به إلى حدّ أن ينسى اتّجاهه الذي حدّده في صباح يومه... أفَترى يستقيم أمر هذا الإنسان إلاّ بوقفات طوال الطريق، يتأمّل فيها الوجود ويعرف موقعه منه، ويتكلّم مع مَلِيكه عزّ وجلّ ليؤكّد اتّجاهه من جديد، ويستمرّ في مسيرته على هدى ؟

إنّ داء النسيان للقاعدة والهدف هو خصّيصة طبيعية للإنسان، لكنّها خصّيصة إنسانيّة الإنسان، وسرّ قدرته على الجهد والمعاناة، آخذاً بيد نفسه إلى تكامله، مربيّاً نفسه على الاحتفاظ بالقاعدة المركزيّة التي آمن بها واتّخذها محوراً لوجوده، بوقفاتِ تروٍ وتجديدٍ للميثاق مع الله... وقفاتٍ هي سندٌ للقلب، وزاد المسير، جاءت بصيغتها الإسلامية الخالدة آيةً في العطاء والإبداع، شكلاً ومضموناً..

الصّلاة والإنسان والغيب:

يتناول الإسلام في نصوصه وتشريعاته المسألة الفكريّة والإجتماعية

اي «العقيدة والنظام الإجتماعي»، من مستويات متعدّدة ومن زوايا متعدّدة... يتناولها من مستوى اجتماعي فيخاطب المجتمع المتكّون من أفراد وعلاقات... ويتناولها من مستوى فردي، لأنّ الفرد أساس المجتمع... وعلى هذا المستوى يتناول المسألة من عدّة أبعاد... ذلك أنّ أبعاد شخصيّة الإنسان متعدّدة، وأبعاد الظروف المحيطة به كذلك، فالإنسان كالجوهرة الكثيرة الأضلاع والزوايا، تحيط بها ظروف كثيرة الأضلاع والزوايا، ولا بدّ أن يُلقى الضوء على الزوايا المختلفة، لكي تستوفى الصورة ويستكمل الغرض. الإسلام يتناول المسألة من زاوية التذكّر والنسيان، وهما بُعدان في عقل الإنسان وإرادتـه... وفي هذه الفقرة نرى كيف يتناول الإسلام المسألة من البُعد الزماني والمكاني المحيط بالإنسان، أي من زاوية علاقة الإنسان بالغيب... ودور الصلاة في هذه العلاقة.

معنى الغيب والشهادة:

الموجودات في نظر الإسلام ثلاثة أقسام: كائن طبيعي مشهود ـ عالم الشهادة. و كائن طبيعي غير مشهود ـ عالم الغيب. و كائن غير طبيعي وغير مشهود ـ عزّ وجلّ. فالقسم الطبيعي المشهود: هو ما تصل إليه أجهزة حواسّنا «جهاز إدراكنا»، كالأرض، وما نراه من فضاء وكواكب

ونجوم... ونسبة هذا العالم إلى العوالم الطبيعية غير المشهودة، كنسبة البيضة إلى الأرض «كما ورد التمثيل بذلك في حديث شريف»... والقسم الطبيعي غير المشهود: يشمل عوالم: الجنّة، والنار، والملائكة، والجنّ، وعوالم المخلوقات الأخرى، التي ورد في الحديث أنّها كثيرة ومتنوّعة، وأكثر هذه العوالم شبهاً بنا على ما يبدو عوالم الأرضين الأربع، حيث ورد في النصوص الشريفة: أنّ خَمساً من الأرضين السبع معمورة، واثنتين خَرَابان. والأقرب لنا من الجميع عالم الجنّ، الذي يشترك معنا في جملةٍ من الصفات العامّة، من الخَلْق والتكليف وأصول الرسالة الإلهيّة، ولذلك يخاطبنا الله تعالى معاً في عدد من الآيات... وهذا القسم الشاسع من عوالم الطبيعة الغائبة يكتنف عالمنا المشهود ـ عالم البيضة ـ، ويَتلابس فيه بنوع من التلابُس.

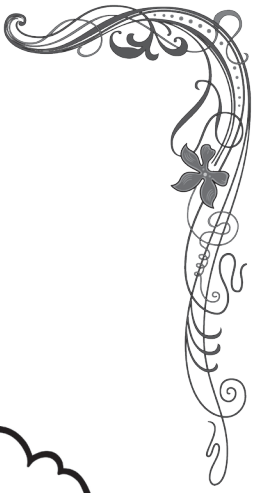

الحلقة الخامسة

الكائن غير الطبيعي

تكلمنا الحلقة السابقة عن الموجودات في نظر الإسلام والتي هي ثلاثة أقسام: كائن طبيعي مشهود ـ عالم الشهادة. و كائن طبيعي غير مشهود ـ عالم الغيب .و كائن غير طبيعي وغير مشهود ـ عزّ وجلّ سنتحدث عن القسم الثالث:

وأمّا القسم الثالث: الكائن غير الطبيعي، فهو الموجود بذاته سبحانه، والمُوجد للعالم الطبيعي المنظور وغير المنظور، وهو عزّ وجلّ وجود متفرّد يكتنف العالمِيْن أجمع، ويتلابس فيها بنوع من التلابُس.

هذي هي الخطوط العامّة للصورة التي يقدّمها الإسلام عن الكون ككل... وإنّ التعبير القرآني بالشهادة والغيب أصحّ من تعبير الفلاسفة بالطبيعة وما وراء الطبيعة، وذلك لأنّ كلمة الطبيعة تشمل المشهود وغير المشهود، بينما يَقصد منه الفلاسفة خصوص الطبيعة المشهودة، كما أنّ ما وراء الطبيعة يقصدون به الموجود غير الطبيعي كليّاً، على أنّ ما وراء الطبيعة هذا قد يكون طبيعة غير مشهودة، وقد يكون غير الطبيعة كليّاً «**الله تعالى**».

ومن النتائج الملحوظة لهذا اللبس لدى الفلاسفة المحْدَثين، أنّهم يفترضون مسبقاً في اصطلاح «ما وراء الطبيعة» أنّه كائن غير طبيعي، مع أنّه لا محتّم لذلك...

إنّ الغيب هو القسم الأكثر والأكبر من الوجود، فإنّ ما نشهده من الوجود هو الأقلّ، وما لا نشهده هو الأكثر...: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ غافر٥٧.

أمّا ـ الوجود ـ الخالق سبحانه وتعالى فلا يُقاس به شيء: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما**﴾ البقرة-٢٥٥.

دور الصلاة في التعامل مع الغيب:

الصلاة هذا العمل اليومي المركّز بأفعالها البدنيّة وتلاواتها البليغة، أسلوب فريد لنقل الإنسان من ذاته ومحيطه الصغير وزمانه القريب إلى الأفق الأرحب، واحساسه بالله تعالى وغيبه.

إنّ المصلّي بمجرّد دخوله في الصلاة بالإحرام، ينتقل إلى بُعد مكاني وزماني جديدين ويتعامل معهما، ولا نجد مصلّياً يفقه شيئاً من صلاته إلاّ ويحسّ بهذه الحقيقة ويتأثّر بها.

إنّ أهميّة الصلاة في تحسيس الإنسان بمسؤوليّته في الأرض،

وتصحيح مسيرته وأعماله كبيرة دون شكّ، ولكنّها تأتي من تحسيسه بالله تعالى وبالآخرة، وإعادة المفاهيم الإسلامية والمقاييس الإسلامية الرحبة إلى وعيه وشعوره.

إنّ مفاهيم المسلم عن الأرتباط بالله تعالى، والتوجّه إليه، وعن التطلّع والأشتياق إلى الآخرة، ومفاهيمه في السموّ عمّا ينزل إليه الناس من متاع الدنيا وسفاسفها، ورَفرفات روحه نحو الملأ الأعلى... وغيرها من المفاهيم الراقية المؤثّرة في رقيّ سلوكه وتعامله... هذه المفاهيم تتزوّد بحيويّة خاصّة من فريضة الصلاة اليوميّة.

وهل أبلغ في جعل الغيب مجسّداً ـ يحسّه الناس ويتعاملون معه ـ من عملية الصلاة الواعية وأفقها الشاسع، التي يجعلها الإسلام مظهراً يوميّاً لحياة المسلم والمجتمع الإسلامي، فتُبنى لأجلها المساجد، وتُترك لأدائها الأعمال، وتقسّم بموجبها الأوقات، ويُتطهّر لأجلها بالماء... وتؤدّى باستمرار في وسط النهار وأطرافه...

إنّ الصلاة هي: الإصرار الواعي والمعالجة المستمرّة للنفس البشريّة، من أجل أن تتحرّر من الاستغراق في المتاع القريب، وتوسّع أفقها الزماني والمكاني، لتكون على مستوى حاجاتها الفعليّة والمستقبليّة على الأرض وفي الآخرة، إنّها استمداد المحدود من المطلق، حياة وسِعةٌ

في أبعاد ذاته وزمانه ومكانه... وهي بالتّالي ظاهرة من معالم الحضارة المتميّزة التي يدعو الإسلام لبنائها على الأرض، ممتدّة بأفقها إلى جميع الناس، وإلى مستقبل الأجيال على الأرض، ومستقبل الناس في الحياة الآخرة.

وأيّ شيء يفي بالتحسيس على الغيب كالصلاة... هذه الدقائق العميقة الثريّة... الميسّرة لكلّ الناس.

توقيت الصّلاة وتعدّدها:

دلالة التعدّد

من الثابت عن نشأة النبيﷺ قبل البعثة، أنّه كان يجاور في كلّ سنة بحراء الكهف الصخري الواقع في ـ جبل ثور ـ على بُعد خمسة كيلو مترات عن مكّة المكرّمة، ويمضي هنالك أيّاماً في التعبّد.

أمّا ما هي طبيعة هذا التعبّد الذي كان يقوم بهﷺ؟ وهل كان يؤدّي في سائر أيّام السنة لوناً مؤقتاً من الصلاة ؟ أم أنّ التوقيت لم يبدأ إلاّ بعد البِعثة في عام الإسراء، كما هو المعروف ؟...

ليس بعيداً أنّهﷺ، كان قبل البِعثة يمارس صلاةً يومية موقتة سوى موسم التعبّد بحراء، الذي كان يمضيه بصلوات طويلة قد تستغرق

نهاره وأكثر ليله...

أوّلاً: لأنّ قضيّة التوقيت من القضايا الطبيعية لحياتنا، التي يفرضها وجود الليل والنهار، واحتياج الإنسان إلى وجبات الطعام والراحة، فالاهتداء إلى التوقيت ليس صعباً...

وثانياً: لأنّ الوفرة العقليّة التي كان ينعم بها صلّى، تنسجم مع الإهتداء إلى ضرورة توقيت عمليّة التفهّم والخضوع بين يدي الربّ عزّ وجلّ... هذه الوفرة التي كانت تتنامى باستمرار، ببركة العناية الإلهيّة التي منها: المَلَك الذي رافقه منذ طفولته: «ولقد قَرن الله بهﷺ ـ من لدُن أن كان فطيماً ـ أعظم مَلك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم...».

ومهما يكن من أمر، فإنّ المشهور لدى المسلمين أنّ الصلاة اليوميّة فُرضت بعد البِعثة الشريفة، في معراج رسول اللهﷺ، محدّدة بخَمس فرائض، وسبعَ عشرةَ ركعة، وأوقات معيّنة.

يستكثر بعض الناس أن يوجب الإسلام على الناس خَمس صلوات في اليوم الواحد... فيسألون: ألا يكفي بعد أن أوضح الله عزّ وجلّ للناس حياتهم، وحدّد لهم أهدافهم، وكشف لهم عن مستقبلهم، أن يكلّفهم بصلاة واحدة صباحيّة مثلاً، يؤكّدون فيها وعيهم وأهدافهم

ثمّ ينطلقون إلى أعمالهم؟

أو يسألونك لماذا لا يصحّ أن تُجمع الوقفات الخَمس في وقفة طويلة، صباحية أو مسائية، تكون شحنة تمدّ الناس بالهدى ليوم كامل؟

يقال ذلك، حينما يُغفل عن طبيعة الإنسان، وطبيعة ظروفه التي يعيش فيها... أمّا حينما يؤخذان بعين الاعتبار فيتّضح أنّ الصلاة هكذا يجب أن تكون، خَمس صلوات كلّ يوم.

صحيح أنّ أحدنا يملك إمكانات هائلة للتكامل، وللسعي باستقامةٍ في تحقيق أهداف وجوده الكبيرة، ولكنّنا بنفس الوقت نحوي بذور ضعفٍ خطيرة تتهدّدنا كلّ حين أن تعصف بإمكاناتنا وأهدافنا...

قد تخرج من بيتك مليئاً بالعزيمة والتصميم، وتشعر بوجودك كياناً قويّاً ساعياً لأهداف كبيرة، ثمّ يعترضك بعد ساعة إغراء مال أو أي شيء اخر، فما هو إلاّ أن ينهدم الكيان وتنهار القوّة، وتجد نفسك وجوداً خائراً في قبضة الإغراء مجبولاً بطينه...

أو تصمّم على مجابهة وضع اجتماعي، واثقاً كلّ الثقة بحجّتك ضدّه وقوّتك عليه وتضحيتك من أجل تصحيحه، ثمّ ما أن تواجهك الأوهام والتخوّفات حتى تنكص عن التصميم، وتنخذل أمام الخوف...

أو أن تكون في أحسن حالك المُعتادة، فيفاجئك حدث من مُحزنات

الدنيا المتكرّرة، فيبدّل رحابةَ صدرك إلى ضيق، وآمالك إلى آلام، وقوّتك إلى ضعف.

وكثير من أمثلة هذا الضعف تزخر بها حياة الأقوياء من الناس، فضلاً عن الضعفاء.

إنّ الضعف في الإنسان قاعدة وليس فرعاً، وبذوره التي يمكن أن تنمو في أي لحظة ترافقنا طوال حياتنا...

ومعوّقات الحياة... مشاغلها، ومتاعها الحطام تتساعد هي الأُخرى مع ضعفنا، فتشدّنا إلى اللصوق بتوافِه صغيرة، وكثيراً ما تثنينا عن أهدافنا، وتتحوّل إلى حاجب ينسينا أنفسنا وربّنا! لهذا كان لا بدّ للإنسان أن ينمّي بشكل دائم قوى الإيجاب في نفسه، وأن يحميها من جوانب السلب، ويسدّ ثغراتها مرّات كلّ يوم...

فلو كان أمر الإنسان يستقيم بصلاة واحدة أو اثنين لما فرض الله عزّ وجلّ عليه أكثر منها، ولو كانت تتمّ الشُحنة المطلوبة ليومٍ في وقفة واحدة، لأجاز سبحانه جمع الصلوات الخَمس في وقت واحد، كما أجاز جمع الظهرين وجمع العشاءين تخفيفاً منه ورحمة... ولكنّها الضرورة النابعة من نفس الإنسان وظروفه، أمْلت هذا التعدّد والتوقيت، فجعلت الصلاة على الأقلّ بعدد وجبات الطعام. ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ**

الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الأسراء-٧٨.

إنّ تعدّد الصلاة وتوقيتها في التشريع الإسلامي ، يدلّنا بوضوح على أنّ نفس الإنسان وظروفه مأخوذة بعين الاعتبار في هذا التشريع. فمن الواقعيّة وليس من سوء الظنّ أن نعترف بأنّ الإنسان يحتاج في كلّ يوم يعيشه إلى رعاية وإلى تكرار التوعيّة... إلى عمليّة تفهّم وتخشّع خَمس مرات في الأقلّ، علّهُ يستوعب منها ما يصحّح مشاعره وأفكاره وأعماله، وينقّيها من رواسب الضعف والانحراف... أليست الصلوات بكلّها معرّضة للفقدان والتحريف حينما يحوّلها الإنسان إلى حقل يابس؟ إلى وقفات جامدة عديمة العطاء...؟ فما بالك إن عوّض عنها بصلاة واحدة...؟

عن الإمام الرضا عليه السلام، أنّه سُئل عن حكمة الصلاة وتعدّدها فقال: «...**لأنّ في الصّلاة الإقرار بالربوبيّة، وهو صلاح عامّ... لئلا ينسى العبد مدبّره وخالقه، فيَبطر ويطغى... والقيام بين يدي ربّه زاجراً له عن المعاصي، وحاجزاً ومانعاً عن أنواع الفساد... إنّ الله عزّ وجلّ أحبّ أن يبدأ الناس في كلّ عمل أوّلاً بطاعته وعبادته... فإذا فعلوا ذلك لم ينسوه ويغفلوا عنه، ولم تقس قلوبهم...**».

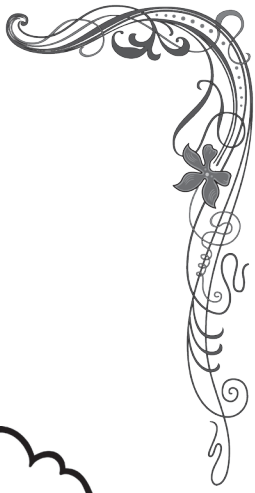

الحلقة السادسة

دلالة التوقيت

يتفاوت إحساس الناس بالوقت ـ هذا المحيط الزمني الذي يعيش فيه الإنسان، وما حوله من إحياء وأشياء ـ وتنظيمهم له واستفادتهم منه.

ففي المجتمعات البدائية التي يمثّلها في عصرنا بعض مناطق القارّة الإفريقية، وبعض القبائل المنعزلة في أمريكا اللاتينية، وبعض جزر المحيط الهادي، يعيش الإنسان في هذه المجتمعات بذهنيّة مسطّحة لا عمق فيها، وأبرز ما في حياة أفرادها: الكسل، والتراخي، وإهمال الوقت.

اما في المجتمعات الماديّة المتخلّفة، كما في أمريكا الجنوبية، والمجتمعات البوذيّة والهندوسيّة في آسيا ـ عدا اليابان ـ هذه البلاد يعيث فيها الاستعمار فساداً فوق فسادها، ويسيّرها حسب مصالحه، بنهب ثرواتها الخام، ويستغل مواقعها الجغرافية، ويفترس جهود أبنائها... مقابل السلع الإستهلاكية التي يصدّرها إليهم... الوقت في هذه

المجتمعات رخيص يُهدر من قِبَل الأكثرية بالتوافِه من الأمور، ويُصرف من قبل الحكّام ومثقفيهم لخدمة الاستعمار، ولا تجني بلادهم من وقتهم إلاّ التبعيّة والخضوع... يقول أحد شعراء أمريكا اللاتينيّة:

الوقت نهر يجرفني وأنـــا الـنـهـر
إنّـه نمر يمزقني وأنـــا الـنـمـر
إنّـه النار تأكلني وأنـــا الـنـار

أمّـا الوقت في مجتمعات المسلمين المتخلّفة، فهو يُشبه الوقت في المجتمعات الماديّة المتخلّفة، مع اختلاف في وجود بقايا المفاهيم والعادات الإسلامية، ووجود محاولات إسلامية جادّة للخروج من المأزق الاستعماري، ومن دوّامة التخلّف بكلّ أبعادها.

وأمّا مجتمعات الحضارة الماديّة المتقدّمة، فقد اندفع الناس فيها للاستفادة من الوقت في الحصول على السلع والمُتع الدنيوية بأوسع نطاق، ونَمت عندهم الأشياء بما لم يسبق له مثيل في المجتمع البشري.

فلا يمرّ يوم لديهم إلاّ ويزداد إنتاج السلع البسيطة والمعقّدة، من وسائل الرفاهية، إلى أسلحة الدمار والحرب، ويتميّز المجتمع الأشتراكي بالمركزيّة، والمجتمع الرأسمالي بالانطلاق الفردي، وكلاهما يعملان في اتجاه واحد، اتجاه التّرف واللهو والركض وراء السلع والإنتاج والربح

والسيطرة .

إنّ توقيت الصلاة اليوميّة الذي يبدو عملية تعداديّة أو تقسيميّه بسيطة، هو إحدى العمليّات التغيريّة الكبرى التي يحدثها الإسلام في حياة الإنسان وحضارته... فقد بني هذا الدين الإلهي الخالد بناءاً محكماً للإحاطة بحياة الإنسان وتنظيمها تنظيماً شاملاً ودقيقاً، وجعل لحياته محطّات رئيسية تكون مصدراً حيويّاً للتنبيه للوقت إلى الخطّ السليم، ومن أهمّ هذه المحطّات: الصلاة اليومية، علامة المؤمن التي تنهاه عن الفحشاء والمنكر.

إنّ توقيت الصلاة عملية رائعة يتذكّر الناس من خلالها بصورة أكيدة ودائمة وعلى أحسن وجه، صلتهم بربّهم على مدار اليوم من الفجر إلى العشاء. وإلى الثُلث الأخير من الليل.

وإنّ التزام مجتمعاتنا الإسلامية بأداء الصلاة اليومية، لهو واحد من أهمّ الأعمال والظواهر المؤثرة في كفاحنا لإقامة الحياة الإسلامية والحضارة الإسلامية، هذه الحضارة الربانيّة ـ المعنويّة والماديّة ـ التي تخرجنا من حالة الخضوع والتخلّف، وهدر الأوقات والأعمار، كما تنجينا من الوقوع في مستنقع مجتمعات الحضارة الماديّة، التي تستفيد

من الوقت ولكن ركضاً وراء ترفها، وإمعاناً في استعباد الشعوب المستضعفة.

ومن مفردات تأثير الالتزام بالصلاة اليومية المؤقتة نذكر: تطبيق نظريّة الإسلام عن الليل والنهار، ونشير إلى المُعطى الصحي والنفسي لهذا التوقيت والتنظيم:

تطبيق نظرية الإسلام عن الليل والنهار:

تَنُوف الآيات القرآنية التي تضمن ذكر الليل والنهار على الستين آية، ولكنّ الآيات التي اختصّت بالليل والنهار أو تضمّنت التركيز عليهما تَنُوف على الثلاثين... وهي تنقسم إلى فئتين:

الفئة الأُولى: تتناول الجانب التكويني لظاهرتي الليل والنهار، فتبيّن للناس مختلف أوجه الحكمة والرحمة في تكوين الليل والنهار... في أصل خلْقِهما، وفي تقليب كلّ منهما وتكويره على الآخر، وفي ثبات نظامهما الدقيق وارتباطه بحاجة البشر الحياتيّة، وفي مسيرة الليل الدائبة وراء النهار على مدار الكرة، يطلبه حثيثاً فلا يدركه... وتدعوهم إلى استيعاب الدلالة والحكمة والرحمة في هاتين الظاهرتين، اللتيْن قُصدتا قصداً في تكوين الأرض، وإعدادها لحياتهم... من هذه الفئة قوله عزّ

وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً...﴾١٢ ـ الإسراء. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٧١ ـ ٧٣ القصص.

اما الفئة الثانية تتناول الجانب الوظيفي للّيل والنهار، وتدعوا الناس لأن يجعلوا حياتهم منسجمة مع الوظيفة الطبيعيّة لكلّ منهما.

ومن هذه الفئة قوله عزّ وجلّ: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ ٦١ ـ غافر. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾٦٢ ـ الفرقان. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ٤٧ ـ الفرقان.

وغرضُنا في هذا القسم، أن نتبيّن رأي الإسلام في الجانب الوظيفي

للّيل والنهار، ثمّ نتبيّن مدى فاعليّة توقيت الصلاة في تطبيق هذا الرأي.

فالجانب الوظيفي للّيل في رأي الإسلام هو: السكن لهذا الجهاز الإنساني، أمّا الحركة فهي اضطرار مخالف لوظيفة الليل الطبيعية.

والجانب الوظيفي للنّهار هو: العمل والنشور ـ السَرح في الأرض ـ أمّا السكون فهو مخالف لوظيفة النهار الطبيعية، اللهمّ إلاّ راحة الظهيرة القصيرة التي تنصّ عليها الآية ـ ٥٨ ـ من سورة النّور: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ**﴾، والتي تكون بحكم الأكتفاء بسكن الليل ارتياحاً موجزاً، لتجديد النشاط عقِب شوط العمل وطعام الغداء.

وقضيّة السبات والنشور في الليل والنهار حقيقة عميقة في تكوين الإنسان وحياته، جسديا ونفسيا وعقليا... والبحوث العلميّة في هذا الجانب لا بدّ أن تجيء مؤيّدة لهذه الحقيقة، كما أيّدها إلى الآن العديد من البحوث الفسيولوجية والنفسية...

ومن أكبر الجنايات التي يستهين بها الناس، جنايتهم في إهمال الوظيفة الطبيعية لليل والنهار، وقلْبها رأساً على عقب... فلو أردنا أن

نقّدر الخسائر التي تترتّب على هذا التغيير لرأيناها فادحة جداً في الصحة الجسديّة، أو الصحة العقليّة والنفسيّة للناس، أو في الناحية الإقتصادية أيضاً. لذلك كان من الطبيعي للإسلام وهو المنهج الربّاني للحياة المُثلى، أن يعالج هذه الناحية بتوعيته النظريّة، وبتشريعاته العمليّة..

وقد تمثّل جانب التوعية النظريّة بتقرير الجانب التكويني، والجانب الوظيفي لليل والنهار وتركيزه والتأكيد عليه، وهو ما تكفّلت به الفئتان من الآيات التي أشرنا إليها، والعديد من نصوص السُّنة التي فصّلت النظرية وشرحتها، كقولهﷺ: «**لا سهر إلاّ في ثلاث، متهجّد بالقرآن، أو في طلب العلم، أو عروس تُهدى إلى زوجها**».

وأمّا الجانب التشريعي لمعالجة هذه الناحية من حياة الناس، فأراه يتمثّل أكثر ما يتمثّل في توقيت الصلاة الصباحيّة والمسائية... فقد فرض الله عزّ وجلّ على الناس أن يستيقظوا قَبل طلوع الشمس ليؤدّوا صلاتهم بين يديه سبحانه، إيذاناً ببدءِ النشور وانتهاء السبات، كما فرض عليهم أن يؤدّوا صلاةً أخرى في المساء، إعلاناً بختام فترة النشور ودخول فترة السكون. إنّ صلاتي الصباح والمساء إذ تحدّدان بصورة طبيعية وأكيدة بدء العمل ونهايته، لَترسمان لنا الصورة اليوميّة لنشاط المجتمع الإسلامي.

مجتمعٌ يهبّ مع الفجر على انسياب الأذان بصوت الإعلان الخالد: «**الله أكبر**» للماء الطّهور، يفتح به نشاطه بعد استجمام، ويمثُل بين يدي الربّ الرحيم، بادئاً يومه الجديد باسمه وبعونه وبهدايته وفي طريقه...

مجتمعٌ يتنفّس أُناسه مع تنفّس الطبيعة الرائع، وتتفتّح قلوبهم بإشراقة الصلاة، مع تفتّح قلب الطبيعة بإشراقة التسبيح، فيمتزج ابتهال الإنسان في موكب سعيد من تغريدٍ وثغاءٍ، وأريج وهديل، يعمّ المدن والقرى، والسهول والسفوح، والقِمم فرحة بيوم جديد وأملٍ جديد... ثمّ ينطلق هذا الموكب في نشاطه بعين الله وبعونه، يقيم حياته، ويعمّر أرضه، ويصرّف شؤونه.. حتى إذا نثرت عليه الشمس ثُمالة أشعّتها وعَسْعس الليل مؤذناً بالسكون، عَسْعس موكب الحياة المبارك إلى مِهاد أمن الله في ختامٍ رائع، يلتفّ فيه حنان الثغُاء بزقزقةِ الأوكار وإياب النسيم بارتياح الزهور. وتنزل الملائكة بصلاة الختام، حيث يعود الناس من سَرحهم وكدحهم إلى بيوت الله، أو بيوتهم يشكرونه على توفيق يومهم، ويعتذرون إليه لِما فرط منهم، ويستهدونه لأيّامهم المقبلة، ويستمدّون منه المعونة للسير في المهمّة التي خلقهم من أجلها وهداهم إليها، ثمّ ليسكنوا إلى أهليهم من حركات التعب ونهضات النصَب، ليكون ذلك لهم جِماماً وقوّة وسعادة.. ولافتتاح النهار أثر كبير

في سلوك الإنسان، فإنّ العمل المؤثّر الذي تفتتح به نشاطك، والشعور الذي تتلقّاه في الصباح، ينعكسان على عملك في النهار بشعور أو لا شعور، وماذا أبلغ من أن يفتتح الناس نشاطهم في أرضهم بصلاةٍ بين يدي ربّ الأرض والوجود عزّ وجلّ، يستهدونه الطريق، ويستعينونه على الأهداف، ثمّ لِيسرحوا في أرضه ويبتغوا من فضله... وختام النهار كافتتاحه، أو هو أشدّ حاجة لعودةٍ إلى الله، ووقفةٍ تضع الناس بحصيلة نهارهم بين يديه، ليباركوا نتاجهم الخيّر وجهدهم المبرور، وينفضوا عنهم أوضار النهار وأثقاله وآثامه... إنّها صورة بديعة لبكور الناس وعشيِّهم تشدّنا إلى جمال الحياة الإسلامية، التي افتقدها عالمنا الحاضر، واستبدلها بالتمزّق المرير الذي ينام أُناسه على شبَحه في ساعة متأخرة من الليل، ويستيقظون على مضغه في ضحى النهار...

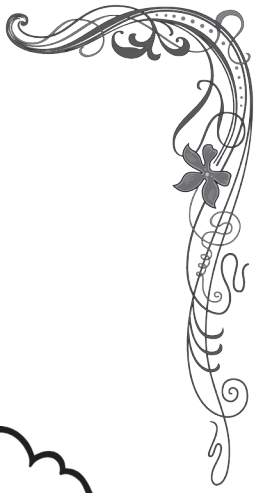

الحلقة السابعة

توقيت الصلاة ولماذا هذا التوقيت؟ ..

ماذا باستطاعة حضارة الانفصال عن الله، أن تحقّق للناس غير انفصالهم عن الطبيعة وعن أنفسهم؟ لو كان الناس أكفّاء لإسعاد أنفسهم في الدنيا بدون هدى الله، لانتظموا مع الطبيعة في منهج البكور والعودة على الأقل!

تبارك الذي خلق الليل والنهار، وشَرع للنشور، صلاة شاكرة معطاءة تزوّد الناس بالهُدى، وتنتظم بهم في موكب الطبيعة الجميل... وإذا بلغ النهار منتصفه وجب على الناس أن يؤدّوا صلاة الظهر، وفي هذا التوقيت علاج لمسألتين مهمّتين في حياة الناس:

الأُولى: تصفية الشوائب التي تعلَق بنفس الإنسان في غمرة الحركة، فإنّ باستطاعتك أن تلاحظ فرداً أو أفراداً من الناس، لترى الفرق الكبير بين حالتهم النفسية في الصباح، حينما توجّهوا إلى أعمالهم باسم الله وعلى بركته، وبين حالتهم النفسية قُرابة الظهر، وقد قطعوا شوطاً من العمل في طلب الرزق، والتعامل مع الناس.

أو تلحظ المحتوى النفسي لمجتمع استقبل يومه الجديد بالصلاة الصباحية، فخشع بين يدي الله وتملّى وجوده وهدفه ومفاهيمه عن الحياة والسعي فيها وانتشر في أعماله... ثمّ تلحظ هذا المجتمع قُرابة الظهر، وقد أمعن فلاّحوه في حقولهم، وتجّاره في أسواقهم، وموظّفوه في دوائرهم، وعمّاله في أعمالهم، ومسؤولوه في تصريف أمورهم... لَتجد المسافة بين مشاعر الصباح ومشاعر هذه الساعة...

سترى مجتمعاً استغرق في حركة السعي لرزقه، حتى كاد ينسى مفهومه عن السعي، والروح الفرديّة قد تسرّبت في أفراده، حتى ليكاد الواحد منهم أن ينحصر في جوّه ومشاغله الخاصّة، ناسياً بذلك وجوده المجموعي ومسؤولياته في ذلك...

إنّه داء النسيان يعاود الإنسان في غمرة علائقه بالدنيا، فيهدّد مفهومه عن المال والذات، ويهدّد هدفه من كدحه وسَرحه، حتى تكاد تنفذ من قلبه شحنة المشاعر الجيّدة التي تلقّاها في الصباح، فلا يعيده إليها إلاّ نداءٌ يأتي من مختلف الجوانب معلناً:«**الله أكبر**» لتتجاوب معه أعماق الضمير قائلة: نعم الله أكبر... نداءٌ وكأنّه يد الغيب الرفيقة، تمتدّ فتنتشل الناس من نسيانهم لتضعهم بين يدي ربّهم الأكبر عزّ وجلّ، أمام مفاهيمهم ومشاعرهم وهدفهم من حياتهم الدنيا... وحياتهم العليا...

ضعيف هذا الإنسان عندما يستغرق في كدحه، فينسى كدحه ويستغرق في نفسه فينسى نفسه، ينسى أنّه موجود في زاوية من كون الله الكبير، وأنّه لا بدّ تاركٌ هذه الزاوية، وعائد إلى قلب الكون ليلاقي هناك ربّه وعمله... ولذلك كانت صلاة الظهر نِعم الدواء، نِعم العون على الضعف.

والمسألة الثانية: التي يعالجها توقيت الصلاة بانتصاف النهار: مسألة تحديد شوط العمل، فمن الواضح في المجتمع الإسلامي، أنّ أذان الظهر يعلِن انتهاء شوط العمل الصباحي، ويدعو الناس لأداء فريضتهم وتناول غدائهم...

لقد أحكم الله سبحانه بقدرته خلْق الإنسان، فجعل نفسه وجسده يحتاجان إلى الطاقة في آن، فما أن تبلغ الشمس كبِد السماء، حتى تحتاج النفس إلى استعادة مُعطى السلام من المفاهيم والأهداف، في صلاة بين يديّ الله تبارك وتعالى، ويحتاج الجسم إلى وجبة الغذاء وربّما لشيءٍ من الراحة.

إنّ الصورة الإسلامية المفضّلة للعمل في الأرض، أن يكون انتصاف النهار نهاية لشوطِ الصباح، وبملاحظة البكور في النشور

الذي تفرضه صلاة الفجر، فإنّ الدوام الرسمي يكون مدة واحدة تبدأ بطلوع الشمس أو بعده بقليل، وتنتهي بصلاة الظهر.

أمّا الأعمال الحرّة فتكون على فترتين:

أولاهما: فترة الدوام الرسمي.

والثانية: تبدأ بعد راحة الظهيرة وصلاة العصر، وتنتهي بصلاة المغرب... ثمّ يكون السكون والإستجمام.

ونلمس حرص الإسلام على هذه الصورة لمجتمعه، من تأكيده بشكل خاص على الصلاة الوسطى، صلاة الظهر، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: «﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى**﴾، **إنّ الصلاة الوسطى هي صلاة الظهر**» البقرة-٢٣٨.

المُعطى الصحي للتوقيت:

إنّ نظرة في الشريعة الإسلامية من زاوية اهتمامها بصحة الإنسان، ترينا أنّ تطبيق هذه الشريعة العظيمة كفيل بالوقاية من كثير من الأمراض، بالقضاء على منابعها وأسبابها، كما أنّه كفيل بتوفير أفضل ظروف العلاج ووسائله الماديّة والنفسيّة.

فمن الطبيعي للخالق عزّ وجلّ وهو الخبير بمن خلق، وبما خلق، أن يُدخل في حساب تشريعاته توفير كل المكاسب الممكنة لحياة الإنسان، ما عرف الإنسان منها وما لم يعرف.

إنّ توقيت الصلاة إذ يَفرض على الناس أن ينهضوا مبكّرين لأداء صلاة الفجر، يرفض أن يكون الليل أو قسم منه وقت عمل... فالليل فترة سكن، وعلى الإنسان أن ينال منه حاجة جسمه ونفسه، إلاّ من اضطر غير باغٍ ولا عادٍ، ممّن يحتاج المجتمع إلى عملهم في الليل.

إنّ الليل الإسلامي ليلٌ هادئ سعيد، وما أغنى الحياة عن كدح البائسين الذين تسرق منهم الحضارة الظالمة فرصة العمل في نهارهم، وتحرمهم في الليل سكنهم وراحتهم، ولو اكتفى الطامعون من الرأسماليين والأشتراكيين، وعدلوا في توزيع الثروات التي وهبها الله لعباده، لاستغنوا عن إرهاق ملايين المستضعفين الكادحين في الليل، وأعادوا إليهم حياتهم المقلوبة وراحتهم المسلوبة.

ولو أنّ دولة من دول الحضارة الماديّة اتخذت الإجراءات والقوانين اللازمة لإعادة الوظيفة الطبيعية لليل، لحقّقت أعظم الفوائد في الحفاظ على صحة شعبها وأعصابه، ولو فّرت عليهم مبالغ هائلة تصرف عبثاً

في إستهلاك الطاقة الكهربائية وفي العلاج... ولكن أنّى لهم ذلك بدون الإسلام.

وممّا يزيد في الخسارة الصحية والإقتصادية، أنّ ما يقابل إتلاف الليل، أو إتلاف قسم منه في العمل والصخب والفسوق، خسارة غرّة النهار وأفضل ساعاته، وبالأخصّ فترة ما بين الطلوعين، طلوع الفجر وطلوع الشمس... فلا شكّ أنّ هواء هذه الفترة، ثروة صحية كبيرة يبدّدها المسرفون في الليل، فتمرّ عليهم وهم نائمون خاملون.

إنّ الله تعالى أراد للناس أن يهبّوا مع يقظةَ الطبيعة، ليؤدّوا صلاة الفجر وينعموا بثورة نسيم الصباح الباكر، إضافة إلى ما يبعثه جوّ الفجر وطلوع الشمس من مشاعر جميلة، تعود على الجسم والنفس باليقظة والراحة والنشاط، خاصّة بملاحظة الحكم الشرعي الذي يقضي بكراهة النوم بين الطلوعين.

ولراحة الظهيرة التي يفرضها توقيت الإسلام للصلاة نفع صحي كبير، لأنّها تعوّض الجسم والنفس قدراً من الطاقة والحيويّة التي استنفذها العمل.

من أجل ذلك، كانت راحة الظهيرة التي تفرضها الصلاة، حدّاً

إلزامياً لشوط العمل، تُلزم الناس بالمحافظة على سلامة أبدانهم، كما تلزمهم بالمحافظة على سلامة نفوسهم.

المُعطى النفسي للتوقيت:

ومن معطيات توقيت الإسلام للصلاة اليومية، الالتزام بالنظام والاطمئنان النفسي. إنّ كلّ ما حول الإنسان من إحياء وأشياء ملتزمٌ بنظام لحياته، السماء: بحركة أجرامها.. والماء: بجريانه وتبخّره وعودته... والنبات: بغذائه ونموّه وأثماره... والحيوان: بقوانين تكوينه وغريزته... بل الذرّة الواحدة: بحركات أجزائها ونواتها... بل الإنسان: ـ في تكوينه الجسدي ـ ملْتزم بنظام... ولذلك، فإنّ النزوع إلى النظام يعد نزعة طبيعية لدى الإنسان، الذي لا يقرّ عقله ولا تطمئنّ نفسه إلى الفوضى والعبث.

مادام الالتزام بنظامٍ في السلوك هو نداء الفطرة ونداء الحياة من حول الإنسان، فإنّ الإسلام بتوقيته للصلاة اليوميّة يلّبي هذا النداء، ويضع نشاط الإنسان اليومي في إطار عبادة تعلّم الإنسان الانتظام الجادّ الحيوي، وتعطي نفسه الاستقرار بعيداً عن انضباط التقاليد المَمْلول، أو انضباط الأنظمة الماديّة الظالمة. وفي النظام المقنع الواعي استقرار النفس

واطمئنانها... فالنفس إن فقدت هذا الاطمئنان فليس إلاّ الأعراض الرهيبة تنتابها من كلّ جانب وتهدّد كيانها...

الإسلام وما ادراك ما الإسلام الذي هدانا اليه رب العزة واعزنا به إنّه لا يوجد شيء أقْدر منه على إهداء اللؤلؤة المفقودة إلى الأنفُس القلقة، يقوم الإسلام أوّلاً: بتطمين الناس عقيديّاً، فيقدّم لهم مفهومه السعيد الفريد عن الوجود، وعن موقعهم المطمئنّ ثمّ يضع لهم فريضة الصلاة، التي تجعل من الاطمئنان حقيقة يتعاملون معها في سلوكهم، بعد أن استوعبوها في عقيدتهم... ماذا أبلغ في تطمين النفس البشريّة من أن تأوي في فترات نهارها إلى مليك الوجود عزّ وجلّ، لتتفيأ رعايته وحنانه وهداه، وتستمدّ منه العون لحاضر أمرها ومُقبله. وللتوقيت الحكيم الذي اختاره الله سبحانه لفريضة الصلاة، ارتباط واضح بدفعات الطمأنينة التي تحتاجها النفس كلّ يوم... فما أن يرخي الليل أسداله على الأرض، حتى يرتفع الأذان، وتمتدّ يد الصلاة لتُطمئن الإنسان، فتضعه بين يدي ربّه، مسلّمة إيّاه إلى سكون مقصود وينهض الإنسان ليوم جديد، فتوافيه الصلاة مبكّرة، تُبارك له آماله وتبشّره... ويستغرق في العمل وملابسات الحياة، فتعود اليد الرفيقة لتنتشله من حرصه ومخاوفه، وتعيد إليه طمأنينته وارتياحه من تعب النفس وتعب

الجسم.

توقيت حكيم كتبه الله على الإنسان كي يجدّد لنفسه إيمانها واطمئنانها، كلّما قطعت مرحلة من النهار، من أجل أن تبقى مفعمةً بالهداية والسعادة، سائرة برعاية ربّها وهداه، تجني لوجودها خير الحاضر المطمئن، وفوز المستقبل المأمول...

﴿**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾ النساء-١٠٣ .

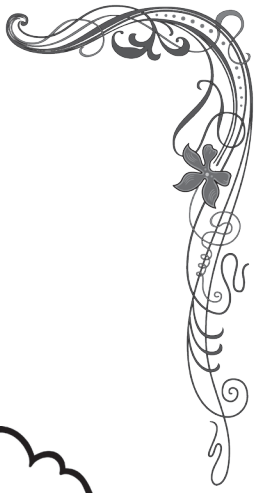

الحلقة الثامنة

التَوجُّه شَطر المسجد الحرام

الناس أبناء أبٍ واحدٍ، وعباد ربّ واحد، ومصيرهم واحد ورسالتهم واحدة... فكم يناسب أن يكون لهم مركز واحد يتّجهون إليه في صلواتهم، من وراء البحار، ومن خلف الجبال، وفي امتداد السهول... وكلّ مكان ينتشرون عليه في الأرض. إنّ المسجد الحرام، يمثّل في الشريعة الإسلامية المسجد الأبَ الذي تتّجه إليه مساجد العالم، ومركز التوجّه الذي تلتقي عليه من جوانبه قلوب البشر وأنظارهم. والوحدة في شريعة الإسلام ظاهرة أصليّة، لا نستغرب عليها أن تمتدّ إلى وحدة الناس في المركز والتطلّع... والأمر الذي يعمّق من هذه الوحدة في الاتجاه: هو قداسة مركز الاتجاه، وما أعرق هذه القداسة، وأرفع شأنها.

فالبيت الحرام والمسجد الحرام: أوّل بيت وضع للناس، مهبط آدم، ومقام إبراهيم عليه السلام، ومنزل إسماعيل عليه السلام، ومحجّ الأنبياء عليهم السلام، ومتنزّل الملائكة، ومنبثق الإسلام... شاء الله أن يكون هذا الشرف الرفيع لهذه البقعة العتيقة عن الخضرة والنضرة وأسباب الرفاه وأطماع الناس. بقعةٌ

متواضعة في وادٍ متواضع، كم انشقّت من فوقها السماء فتنزّلت فيها الملائكة... وكم حفل ثراها وروابيها بأنبياء الله وعبادة المؤمنين، وكم غمرها جلال الله ونوره ورحمته، وكم سيمتدّ هذا الشرف في مستقبل التاريخ... يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام:

«ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدنْ آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الأرض مدراً، وأضيق بطون الأودية قُطْراً، بين جبالٍ خشنة، ورمال دمِثة، وعيون وشِلة، وقرىً منقطعة، لا يزكوا بها خفّ ولا حافر ولا ظلف.

ثمّ أمر آدم وولده أن يُثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغايةً لمُلقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوزَ قفارٍ سحيقة، ومهاوي فِجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزّوا مناكبهم ذُللاً يهلّلون الله حوله، ويرملون على أقدامهم شُعثاً غبراً له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوّهوا بإعفاءِ الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً إلى رحمته ووصلة إلى جنّته ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام،

ومشاعره العظام، بين جنّات وأنهار، وسَهل وقرار، جمّ الأشجار، داني الثمار، ملتف البنا، متّصل القرى، بين بُرّةٍ سمراء، وروضة خضراء، وأرياف مُحدقة، وعراصٍ مُغدقة، ورياض ناظرة، وطرقٍ عامرة، لكان قد صغر قَدر الجزاء على حسب ضعف البلاء، ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع، بها بين زمرّدة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفّف ذلك من مسارعة الشكّ في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى مُعتلج الريب عن الناس.

ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلّل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذُللاً لعفوه...»

كلّ شيء في مكّة يثير العقل والقلب: موقعها الجغرافي بين آسيا وأفريقيا، وتركيبها الجيولوجي، من رمالٍ وجبال داكنة، أشبعتها نُضجاً شمس القرون... وموقعها الكونيّ حذوَ الضراح الذي في السماء، والذي هو: البيت المعمور. وتاريخها الضارب بجذوره إلى بدء تكوين اليابسة، وبدء سكنى الإنسان الأرض، والمُمتدّ مع تاريخ البشر، وأمجاد النبوّات...

قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ ٩٦ ـ ٩٧ ـ آل عمران.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لمّا أراد الله أن يَخلق الأرض، أمرَ الرّياح فضربنّ وجهَ الماء حتى صار موجاً، ثمّ أَزبَد فصارَ زَبداً واحداً، فجمعه في موضع البيت، ثمّ جعله جبلاً من زبد، ثمّ دَحى الأرض من تحته، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...﴾**» الوسائل ج٩ ص٣٤٨.

فمسجدها حرم الله ومسكن أبويْنا البرّين الطاهرين، وكعبتها بيت الله ومثابتةً لأحبائه بني آدم، وبئرها سقيا الله لآبائنا وأنبيائنا، وحَجَرها الأسود، المَلَك الكريم الذي شهد على أبينا آدم بميثاقه في توحيد الله،فحوّله الله مادّة نلمسها بأيدينا، ونشمها ونستشهدها على ميثاقنا...! ومقام أبينا إبراهيم فتى بابل العظيم وأبي النبوّات والبشر، وحِجْر إسماعيل غرسة الله عند بيته الحرام...

ناهيك عن تاريخها الحديث المزدان بنشأة الرسول صلى الله عليه وآله، وبعثته

وجهاده، حيث تلّقى في مكّة نور السماء وأفاضه منها على العالم، فخطّ الخلود على روابيها وبيوتها وساحاتها، وأعطاها أمجاداً إلى أمجاد...

ها هنا ولد سيّد البشر ﷺ... وها هنا درج ونشأ... وها هنا تلّقى الوحي في البيت والمسجد والربوة والوادي... وهاهنا وقف خاشعاً يصلّي، ودموعه تفيض على هذا التراب، وها هنا وقف يفيض من قلبه على الناس يدعوهم إلى الله.

جميع هذه الأمجاد والأشياء تتّصل بكلّ إنسان وتثير في أعماقه الحنين والحنان، وتجعله يحسّ وهو يتّجه إليها في صلاته أنّه يتّجه إلى وطنه الأوّل، ومنابعه المباركة الصافية... إلى روافد رسالة الله التي أشرقت بها الأرض، وانهمرت بها السماء هدى للعالمين، وإلى فوّارها الخالد، يبعث تيّاره كبير الرسل وسيّد البشر ﷺ.

إنّ من الطبيعي لمكّة وهي تحفل بما تحفل به، أن تكون للناس جميعاً ما دامت تتّصل بهم جميعاً، بهذا العمق من الاتصال، ومن الطبيعي لكعبتها أن تكون عتيقةً طليقة حرّة من النسبة إلى شخص أو قوم أو عنصر أو إقليم... سئل الإمام الباقر عليه السلام: لِمَ سمّي البيت العتيق ؟ فقال: «**هو بيت حرّ عتيق من الناس، لم يملكه أحد**».

ومن الطبيعي أيضاً للرسالة الإلهيّة الخاتمة أن ترشد الناس للتوجّه إلى هذا البيت، ما دام هو المنطلق أوّلاً، والمنطلق أخيراً، والملتقى فيما بين ذلك.

كذلك شاء المخطط الإلهي للرسالة أن تتجمّع روافدها، من أرض كنعان وبابل والخليل والقدس وسيناء وبيت لحم ونينوى... في هذا المركز العتيق المقدّس، والمنبع الأوّل والأخير ليكون قبلةَ المراكز كما كان محجّ الأنبياء.

ولأسباب اختباريّه صرفةٍ، لم يفرض الله عزّ وجلّ التوجّه إلى مكّة في أول فرائض الإسلام، بل أمر الرسول صلّى المسلمين وهم في مكّة أن يتّجهوا إلى بيت المقْدس، فكان الرسول وهو في مكّة يجمع بين الاتجاهين فيصلّي قبلةَ المسجد والقدس معاً.

وكان هذا الأمر الإلهي في التوجّه إلى القدْس الشريفة، اختباراً للمشركين المكيّين الذين يعدّون البيت العتيق مجداً عنصريّاً وإقليمياً، ويأنفون أن يعترفوا بالقداسة لبقعة أخرى من الأرض... ثمّ كان اختباراً لليهود والنصارى في المدينة وما حولها عندما نزل الوحي بتحويل القِبلة عن القدْس، التي يعتبرونها بدورهم مجداً عنصريّاً وإقليمياً، ويرفضون

الاعتراف بهذه القداسة لبقعة أخرى من الأرض...

يصف لنا الله عزّ وجلّ حالة الرسول صلّى حينما كثرت أقاويل اليهود ولغطهم بأنّ محمداً ما دام تابعاً «لقبلتهم»، فما عليه إلاّ أن يتّبع «دينهم» ! وكيف توجّه الرسول في هذه الفتنة إلى الله عزّ وجلّ، وأخذ يقلّب وجهه في السماء منتظراً وعده السابق بتحويل القبلة، ومتفكّراً أتكون القبلة التي يختارها عزّ وجلّ مكّة ؟ أم بقعة أُخرى يشاؤها سبحانه؟.

فيأتي الوحي حكيماً حاسماً: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ**

قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ١٤٢ ـ ١٤٨ـ سورة البقرة.

هذه الآيات الحكيمة الحاسمة تقرّر وسطيّة الأتجاه إلى مكّة، بسبب ما تحفل به من عراقة في تاريخ الإنسان، والرسالات الإلهيّة.

ثمّ أنظر إلى التأكيد على الأتجاه الفكري في الآية الأخيرة، من أجل إعطاء الاتجاه المكاني إلى المسجد الحرام محتواه الفكري الإسلامي، وإبعاده عن معاني الجاهليّة والتصنيم...

هذه البدائة الواضحة الصارخة في الاتجاه إلى المسجد الحرام، تُرى هل فاتت المستشرقين وإتباعهم الذين يقولون: أن تقديس الإسلام لمكّة وللمسجد وللكعبة ألوان من التصنيم ؟ أم هو العمى ومرض القلب، يبتلي الله به من يستحقّ ؟

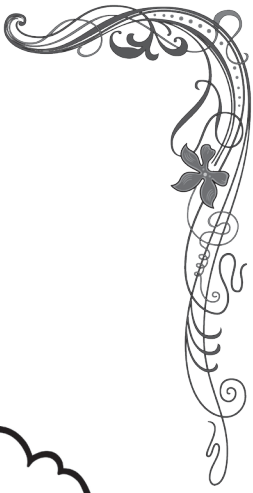

الحلقة التاسعة

قَرْن الصّلاة بالإيمان والزكاة

إنّ الإيمان الذي لا يثير الضمير ولا يدفع إلى العمل بموجبه أشبه بالمصباح المحجور في صندوق، أو بالجسد المحنّط عن الحياة، أو بشجرة الورد البلاستيكيّة الممنوعة من النموّ والعطاء... كيف يؤمن الإنسان بوجود الله تعالى، ويصدّق ما بَلّغ عنه رسله الكرام، ثمّ لا يتدفّق حياة بهذه الحياة، ولا ينبعث إلى العمل لخير وجوده كما بعثه وأرشده الله تعالى ؟. كيف يؤمن أحدنا بأعماقه أنّه كادح إلى ربّه كدحاً فملاقيه، وساعٍ إليه فموافيه، ثمّ لا يتوقّد أملاً وعملاً وإشفاقاً ؟.

إنّ الإيمان الحيّ لا بدّ أن يدفع إلى العمل به، وهي حقيقة يقرّرها القرآن الكريم، ويَزن الإيمان على أساسها، ولذا تجد الإيمان أكثر ما تجده في القرآن مقروناً بالعمل الصالح، ومشروطاً بالعمل الصالح، وكأنّهما إلْفان لا يفترقان، وسبب ونتيجة لا يتخلّفان:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ ٣٥البقرة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ

بِإِيمَانِهِمْ..﴾٩-يونس.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ﴾ ٢٨ ـ ص.

﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ العصر١-٢.

وفي قرابةِ سبعين آية من القرآن الكريم، يظهر العمل الصالح تحرّكاً لازماً يبعث إليه الإيمان، واستجابةً طبيعية للاعتقاد بالله تعالى ورسالته. والعمل الصالح، كلّ العمل الصالح هو ثمرة الإيمان: الجهاد مع النفس، وفي المجتمع والعمل المعيشي، والراحة اللازمة، وأداء كافّة الواجبات والمستحبات التي بلّغها رسول الله صلّى، أو هدى إليها عقل الإنسان «الرسول الباطن»، ولكنّ أول عمل صالحٍ ينتج عن الإيمان، وأوّل ثمرةٍ تبرز من أكمامه، إقامة الصلاة، ثمّ يليها إيتاء الزكاة...

﴿الم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ١ ـ ٤ لقمان.

وهناك آياتٍ كريمة عديدة قرن الله فيها الإيمان بالصلاة وبالزكاة

إنّ قضيّة إيمانك بالإسلام تقف في أوّل خطواتها أمام امتحانك على الصعيد العملي، فإنّ أنت عشتها في جزء من يومك وقسط من نفسك، تابعت تلك القضية خطواتها في حياتك وعطاءها...

وعلاقة الزكاة بالإيمان والصلاة منشؤها، أنّ حقل الإيمان في رأي الإسلام ليس النفس منفصلة عن حركة الحياة، ولا حركة الحياة مفصولة عن النفس، بل هو المساحة الكاملة لحركة النفس وحركة الحياة جميعاً. لا بدّ أن تمتدّ قضيّة الإيمان إلى الربح الموسمي والسنوي، لكي تُسهم ضريبة الزكاة في إنجاح الحياة الإجتماعية وتكافلها. ولا بدّ كما خضعت حركة النفس لمتطلّبات الإيمان، فتقدّست أن تخضع حركة الإنتاج لمتطلّبات الإيمان تتّسم بالعطاء لتتقدّس... فما بعد عطاء الوقت أهمّ وأبعد أثراً من عطاء المال...

عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ أمر بثلاثة مقرون بها ثلاثة أُخرى: أمر بالصلاة والزكاة، فمن صلّى ولم يزكِّ لم تقبل منه صلاته، وأمر بالشكر له وللوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله، وأمر باتّقاء الله وصلة الرحم، فمن لم يَصِلْ رحمه لم يتّق الله عزّ وجلّ**».

ومن الحقائق التي يلفت إليها التعبير القرآني النظر في هذا المجال،

أن يصف المصلّين بأنّهم أهل زكاة، فهم إذاً أهل عمل وإنتاج، ليسوا متصوّفة يهربون بصلاتهم من الكدح والعيش في خضمّ الناس، ولا كُسالى يجعلون من الصلاة حرفةً فاشلة ووسيلة إستعطاء.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ١-٤ المؤمنون

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ١٧- ١٩ الذاريات.

وتلك هي صورة المؤمنين المصلّين حقّاً، الذين تملؤهم صلاتهم بالنشاط، وتدفعهم إلى العمل والإنتاج والعطاء...

الاصْطبار والمحافظة على الصّلاة:

التعجّل مشكلة خطيرة الآثار، وحياة الناس ملئى بالأمثلة عليها... وأعظم النتائج في حياتنا، قد تتوقّف على دقائق معدودة من الصبر، لكنّ الذي يسبب خسارتنا لها هو تعجلّنا ومللنا عن المقدّمات ونزوعنا إلى القريب الصغير من المنافع، دون البعيد الكبير منها.

والصبر المطلوب في نظر الإسلام كما قسمته أحاديث السنّة الشريفة ثلاثة أقسام:

۞ **الصبر على المصائب**: وهي ألوان الخسارات التي يتعرّض لها الإنسان في أحبّائه وأمواله وآماله... فهو بحاجة لأن يمسك عندها نفسه، ويستنقذها من براثن اليأس والغمّ والألم، ويركّز فيها مفهوم الإسلام عن المكاسب والخسائر.

۞ **والصبر عن المعاصي**: وهي أنواع المحرّمات التي تتراءى للإنسان نافعة محبّبة، بينما هي سيّئة الآثار وخيمةُ العواقب... فهو بحاجة لأن يمسك عنها نوازعه، ويركّز في نفسه زيف إغرائها ويربّيها على الابتعاد عنها.

۞ **والصبر على الطاعات**: وهي أنواع الطاعات التي تتراءى للإنسان ثقيلة باهظة، بينما هي عظيمة النتائج رائعة العواقب.. فهو بحاجة لأن يمسك عليها نفسه، ويركّز فيها عظيم منافعها ويربّيها على القيام بها والأنتفاع منها...

ومن أوّل ما يلزم للصبر على الطاعة أن أفهم طبيعة الطاعة، طبيعة الواجبات السلوكيّة التي فرضها الإسلام:

فمن ملامح الطاعة أنّها: تكليف الله لي بصفتي فرداً، وبصفتي جزءاً من أُمّة وإنّه لشرف عظيم أن يجعلني الله عزّ وجلّ أهلاً للمخاطبة والتكليف، فيطلب مني القيام بأعمال معيّنة، والالتزام بسلوك محدّد، ويندبني إلى إجابة أمره المقدّس المطاع.

ومن ملامح الطاعة أنّها: ضرورة تكفل لي الحياة السعيدة، الاطمئنان في النفس، والنور في القلب، والبلاغة في الشخصيّة، والمركز الثابت في الأرض وفي الكون، لي وللجماعة التي أنتمي إليها وأتحمّل معها أداء طاعة الله وتطبيق دينه.

ومن ملامح الطاعة أنّها: عمّا قليل تمنحني العيش الخالد، في بيت أفضل من بيتي، وصحة أقوى من صحتي، وسعادة أوسع وأروع من سعادتي، تؤهلني لأن أُسْتقبل لدى مغادرتي استقبال الإبطال، وأُزفّ إلى الخلود زفاف الأبرار، إنّ عملاً هذه طبيعته ونتائجه، لهو عمل يُحرص عليه، ويُصبر عليه، ويُنهض بتكاليفه بسخاء.

والصلاة واحدة من نوع هذا العمل، ومن أهمّ التكاليف التي شرّفنا الله عزّ وجلّ بها، وجعل علينا عهدتها، وحدّد لنا صيغتها وأقواتها.

والصبر على الصلاة من أوّل الصبر على الطاعات، وهو يتألّف من

لونين من الصبر: صبرٌ على أدائها، وصبرٌ على الأستفادة منها.

فما دمتُ أفهم طبيعة هذه الطاعة وأؤمن بضرورتها لوجودي، فلماذا لا أُصبّر نفسي على أدائها في مختلف الظروف ؟ لم لا أحرص عليها كما أحرص على غذائي ؟ وعجبا للمصلّي الذي «يتنازل!» عن صلاته في بعض الحالات، بحجّة ظروف السفر أو المشاكل أو المرض أو المعارضة والاستهزاء من أغبياء حوله...

كيف لا يـدرَك إنّ الصلاة في هـذه الحـالات تتأكّد ضرورتهـا للشخصيّة، لأنّها تتعاظم فائدتها للنفس وراحتها لضمير.

هل ظروف السفر والحضر، والشدّة والرخاء، والصحة والمرض، والتأييد والمعارضة مانعة لي من طلب الغذاء ؟ فكيف تكون مانعة لي عن أداء الصلاة ؟ بل إنّ من يصبّر نفسه على أداء الصلاة في مختلف الظروف التي يلاقيها من داخل نفسه ومن خارجها، سيجد لصلاته طعوماً جديدة.

فهي في السفر: تشعره بالمواطنة من أرض الله... وفي الشدّة هي: المنفذ للفرج والصِلة بمن يملك الأسباب، وفي المرض: هي الدعاء العميق وصحة النفس التي تنعكس على الجسد، وفي حالات المعارضة

والاستهزاء: هي الثقة بالشخصيّة والإشفاق على المستهزئين الخاسرين.

وفي كلّ ذلك هي: الثبات على خطّ الرسالة، والاعتزاز بالعقائدية في السلوك، والإصرار على الظروف كي تخضع هي لإرادة الإيمان، ويستعلي الإيمان على ضغوطها.

والأرقى من الصبر على أداء الصلاة، الصبر على الاستفادة منها. ومنشأ الحاجة إلى هذا اللون من الصبر، وهو طبيعة الحسّ البشري.

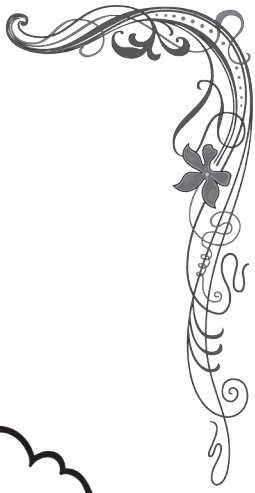

الحلقة العاشرة

تكرار الصلاة

ان كثيرا من قرّاء القرآن ذوي الإيمان الخافت، قد حُرموا من مروج القرآن وينابيعه وسخائه، ذلك أنّ النفس البشريّة يطرأ عليها التلبّد إذا تكرّر عليها الشيء الجميل، ما لم تعط لذاتها على الدوام دفعة الحيويّة اللازمة من أجل الحفاظ على جدّة إحساسها وإرهافه.

والصلاة بأوضاعها ومحتواها لوحة غنيّة بالعطاء والجمال، ولكنّ ضرورة تكرارها اليومي تجعلها في معرض أن تتحوّل إلى عمل شكلي يتبلّد إحساس النفس به، وتنغلق عن روعته وعطائه... ولذلك كانت هذه الفريضة بحاجة إلى لون آخر من الصبر، يتمثّل في تفتيح العقل والشعور عليها والعودة إلى الحيويّة في أدائها. بحاجة كي لا تخسر جمال صلاتك وعطاءها لأن تجدّد في نفسك معنى صلاتك، معنى إيمانك بالله وخشوعك بين يديه، ومعنى انحنائك، ومعنى استلامك الأرض تعفّر بها جبينك، ومعنى جثوّك على ركبتيك تسجّل الشهادة على نفسك لله سبحانه بالوحدانيّة، ولعبده محمّد ﷺ بتبليغ الرسالة.

والصلاة غنيّة بما يجدّد الحيويّة، ويضمن إرهاف الذهن والشعور، حتى يصبح هذا الإرهاف العقلي والعاطفي ملَكة راسخة... ولكنّ مفتاح ذلك هو عزمَة الجدّ والخشوع التي تبدأ فيها صلاتك وتعود إليها كلّما سرحت عنها، فتصبّر نفسك في حقل الصلاة الثري، تجني من مفاهيمه وتتروى من مشاعره.

هذان المعنيان للصبر تقصدهما آيات الصبر والمحافظة على الصلاة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ ١٣٢ - طه.

﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ ٢٨ ـ الكهف.

﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ**﴾ ٢٣٨ ـ البقرة.

﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ... وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ**﴾ ١ - ٩ ـ المؤمنون.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ ٩ - المنافقون.

وممّا يُلفت النظر في التعبير القرآني جمال كلمة: ﴿**وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾،بدل كلمة: ـ واصبر ـ فإنّها توحي بلزوم دفعات متكرّرة من الصبر، لأنّ ـ اصطبر ـ بمعنى: تصبّر أي تكلّف الصبر، وكذلك هو الصبر على الصلاة دفعات من الجدّ تُمسك بها نفسك، فتتغلّب على المعوّقات عن أدائها، والمشوشات عن عطائها.

وممّا يلفت في آيات المحافظة على الصلاة، تخصيص صلاة الظهر بالتأكيد، نظراً لما يحتاجه المرء في وسط النهار من حُزمٍ لإنتشال نفسه من العمل وحُزمٍ للتغلّب على مشاغل النفس وتوجيه الفكر والشعور نحو الله عزّ وجلّ.

عن النبيﷺ أنّه قال لأبي ذر رحمه الله: «**يا أبا ذر: ركعتان مقتصدتان في تفكّر، خيرٌ من قيام ليلة والقلب لاهٍ[ساهٍ]**». **وعنهﷺ، أنّه دخل المسجد وفيه أناس من أصحابه فقال:**

«**تدرون ما قال ربّكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنّ ربّكم يقول: إنّ هذه الصلوات الخمس المفروضات، من صلاّهنّ لوقتهنّ وحافظ عليهنّ، لقيني يوم القيامة وله عندي عهد أُدخِلُه به الجنّة....**»

وعنهﷺ قال: «**لكلّ شيءٍ وجه، ووجه دينكم الصّلاة، فلا يشينّ**

أحدكم وجه دينه...».

الإعداد للصّلاة بالتطهّر:

«الطهارة»: مصطلح إسلامي لنوعين أساسيين من النظافة:

التطهّر من الخَبَث، والخَبث هو: الأقذار التي حدّدها الإسلام، كالدم والبول والخمر والميتة وبقية النجاسات، وأوجب أن يكون المطعم والمشرب طاهرين منها، وأن يكون البدن والثياب حال الصلاة طاهرة منها.

والتطهّر من الحَدَث، والحَدث هو: ما يوجب غسل البدن بتمامه، كمسّ الميت وغيرها، أو ما يوجب غسل الأطراف كالوضوء.

ويفترق التطهّر من الخبث عن التطهّر من الحدث بأنّ المطلوب في الأوّل هو: مجرّد التطهير حتى لو حصل بدون نيّة القُربة إلى الله عزّ وجلّ، أو حصل قهراً وخطأً نتيجة السقوط في الماء أو سقوط الماء... بينما المطلوب في التطهير من الحدث: أن يحصل عن قصد، وأن تصاحبه نيّة التقرّب إلى الله عزّ وجلّ، وإلاّ اعتُبر باطلاً ووجبت إعادته عن قصدٍ ونيّة.

للتطهّرإستعداد للصلاة آثار بالغة في الصحة والنفس، وتنظيم المعيشة يناسب أن نُجملها هنا إجمالاً:

فكم هو مفيد من الناحية الصحيّة أن يلتزم الناس بالنظافة التزاماً دينيّاً لا مجال فيه للتكاسل والإغماض، وأن تكون النظافة شرطاً في قبول صلواتهم عند الله عزّ وجلّ، فيقوموا بتطهير أجسادهم وثيابهم بصورة دائمة، ويعملوا على إتقان ذلك، لأنّ الله تعالى: ﴿**يحبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ**...﴾ البقرة-٢٢٢.

والفارق كبيرٌ في النتائج بين التوعية الصحية الحديثة، التي تعتمد شرح الفوائد والمضارّ، وإصدار الإرشادات الطبيّة، وبين التوعية الصحية بروحها الإسلامية، التي تعتمد بيان أحكام الإسلام بوجوب التطهّر وإجادته، وإنّ الله عزّ وجلّ يأمر بذلك ويشترطه لفرائض الصلاة اليومية، ويحبّ المتطهّرين المتعطّرين ويبارك نفوسهم وبيوتهم وصلواتهم.

وها هو الطبّ يؤيّد غسل البدن الذي يوجبه الإسلام، على أثر الحدث تأييداً كليّاً، ولايوجد شخص واحد استطاعت التوعية الصحيّة الخالية من روح الإسلام، أن تلزمه بالاغتسال على أثر هذه الحالات...

بينما إستطاع الإسلام ويستطيع أن يلزم بهذه النظافة أبعد الناس عن الوعي الصحي.

إنّ أدنى المسلمين نظافةً هو الشخص الذي يغسل تمام بدنه على أثرِ الحدث، كما يغسل أطرافه مرّات كلّ يوم، ويحافظ على طهارة بدنه من النجاسات العارضة . ولا غروّ فإنّ الإسلام دين الصحة والنظافة، وأغراضه فيها وفي غيرها متلابسة متّحدة، يمهّد كلّ منهما للآخر، ويحافظ عليه...

وكم هو مفيد نفسياً أن يشعر الإنسان وهو يَهْمر الماء على بدنه، ويصبّه على أطرافه، إنّه بذلك يستجيب لأمر الله لكي يقف بين يديه مطهّراً بنعمة الماء، ثمّ ليصبح مطهّراً بنعمة الصلاة...

كم هو مفيد أن يحسّ الإنسان بأنّ في الحياة أشياء أمره الله عزّ وجلّ بالتطهّر منها، كما أنّ فيها أفكاراً ومشاعر باطلة أمره بالتنزّه عنها.

أمّا في تنظيم المعيشة، فإنّ الالتزام بالطهارة يوجب إلى حدّ كبير التحفّظ الدائم عن الأقذار، وتنظيم غسل الأطراف، وتنظيم التخلّي عن الفضلات، وفي ذلك أبلغ المنافع في تحقيق الصحة النفسيّة للأسرة، والحفاظ على النشاط الجسمي .

إنّ أدنى ملاحظةٍ أو تجربة تبيّن لك البُعد الشاسع بين الراحة

الكبيرة ـ الصحيّة والنفسيّة والمعيشيّة ـ التي يتمتّع بها المجتمع الملتزم بالتطهّر للصلاة، وبين المتاعب والفوضى التي يعيش فيها المجتمع غير الطاهر، وإن بدا لعينيْك نظيفاً. ﴿**مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾ المائدة-٦.

نَهي الصَّلاة عن الفحشاء والمنكر:

نلاحظ إستعمال القرآن لكلمة ـ الفحشاء ـ مقابل كلمة ـ المنكر ـ في ثلاث آيات كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ...**﴾ ٩٠- النحل.

كذلك إستعمال القرآن لكلمة ـ الفواحش ـ مقابل ـ كبائر الإثم والْلمَم ـ كما قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**﴾ ٣٧-الشورى.

إذاً معنى كلمة فاحشة ـ ومثْلها كلمة فحشاء التي هي اسم للفاحشة ـ يشمل المحرّمات الجنسيّة الظاهرة والباطنة، وشراسة اللسان والبخل، فحيث توجد معها قرينة تخصّصها بأحد هذه المعاني، وإن لم توجد قرينة فلا بدّ من حملها على مجموع هذه المعاني، على الأقلّ أخذاً بشمول الإطلاق كما في الآية التي نحن بصددها ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ**

﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت-٤٥، حيث أُطلقت الكلمة ولم تقيّد بمعنى واحد.

ولا شكّ أنّ ـ المنكر ـ بهذا المعنى المصطلح يشمل الفحشاء، لأنّها قسم ممّا نهى الله عزّ وجلّ عنه، فيكون التقابل بينها في الآية من باب تقابل الخاصّ والعامّ، كما تقول: هذا الدواء ينفع في حالة الإرهاق والتعب، فإنّ التعب يشمل الإرهاق، لأنّه حالة من حالات التعب، ومع ذلك صحّ التقابل بالعطف، لاعتبار الخصوص والعموم.

وبعد اتّضاح معنى الفحشاء والمنكر، يتحدّد معنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، بأنّ الالتزام بأداء فريضة الصلاة من شأنه أن يبعد الإنسان بالدرجة الأُولى عن: المحرّمات كافّة، وعن اثنين من أهمّ المحرّمات الخُلُقيّة: ـ سوء الخُلُق، والبخل ـ وبالدرجة الثانية عن: المحرّمات كافة التي نهى الله عزّ وجلّ عنها ـ المنكرات ـ.

وقبل أن نتعرّف كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، نجيب على سؤال يوجّهه بعض الناس حول الآية الكريمة ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، ومفاده:

أنّا نرى بعض المصلّين يرتكبون من الفواحش والمنكرات ما لا يرتكبه بعض تاركي الصلاة ! فكيف لا تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟!

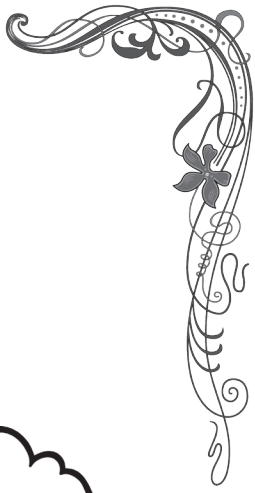

الحلقة
الحادية عشرة

الصلاة و وسلوك المصلي

إنّا نرى بعض المصلّين يرتكبون من الفواحش والمنكرات ما لا يرتكبه بعض تاركي الصلاة ! فكيف لا تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟!

هذا سؤال طرحناه في الحلقة السابقة الذي منشأه هو تصوّر أنّ الصلاة كجرعة «الأسبرين» المضادّة للصداع، فكما إنّ تناول الأسبرين يزيل الصداع من الرأس، فكذلك أداء الصلاة يزيل الفحشاء والمنكر من السلوك...

ومن الخطأ إغفال الفارق ما بين العلاجات السلوكيّة، والعلاجات الفسيولوجيّة مثلاً، فإنّ العلاجات الفسيولوجيّة تقوم بتفاعلاتها وتؤدّي دورها في حقل لا يقع تحت إرادة الإنسان، أمّا العلاجات السلوكيّة فإنّ دورها: أن تقدّم للإنسان دوافع معيّنة تجعله يرجح ـ بإرادته ـ لوناً من السلوك ويستبعد لوناً آخر.

إنّ الصلاة لا تجعل الإنسان مسلوب الإرادة، مجبراً على ترك

الفحشاء والمنكر، وإلاّ لما استحق الثواب، بل تهيئ في نفسه الدوافع الصالحة التي تدفعه لترك الفحشاء والمنكر، ولنلتفت إلى أنّ الله تعالى عبّر بـ ﴿**تنهى**﴾ ـ ولم يعبّر بـ ـ تمنع ـ أو تُزيل.

فما تختصّ به الصلاة إذاً هو غناها بـ «الدوافع النفسيّة الصالحة لإبعاد الإنسان عن الفواحش والمنكرات»، وهي دوافع تقع تحت اختيار الإنسان وإرادته، وتتوقّف استفادتها من الصلاة على تفهّم المرء لصلاته، وجمعه لقلبه عند أدائها، فمثل هذه الصلاة الواعية المتجاوبة، هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر...

ولكن كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمُنْكَر؟

لمعرفة كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمُنْكَر لابدّ من معرفة علاقة الصّلاة بالسلوك:

السلوك هو: النشاط البشري بألوانه الواسعة، من الرضا والغضب، والإحسان والإجرام، والحرب والسلم، والذهاب والمجيء، والإيمان والكفر، والأكل والنوم، والقراءة والصلاة، وكلّ ما يقوم به الناس من أعمال خارجية إنّما هو في حقيقته انعكاس لوضعٍ نفسيّ هو: الإحساس الذي يَنتج بدوره عن الغرائز الكامنة في صميم الإنسان، وعن المفاهيم

التي يحملها عن كونه وحياته ونفسه.

إنّ الكـلام لفي الفؤاد وإنّما جُعل اللسـان على الفؤاد دليلاً

كذلك هو السلوك البشري في مراحله المَعْمليّة: مواد طبيعية، هي الغرائز والأفكار، النظريّة والمكتسبة، تتحوّل في عمليّة نفسيّة ـ بتوسّط العقل أو بدون توسّطه ـ إلى مشاعر في النفس، ثمّ تتحوّل هذه المشاعر في عمليّة ثانية نفسيّة ـ بتوسّط العقل أو بدون توسّطه ـ إلى ألوان من النشاط تعجّ بها الحياة، نسمّيها «السلوك».

ولكن ما يتمّ تحوّله إلى أحاسيس وسلوك، إنّ الذي أوجب أن تقف كميّات من المفاهيم والغرائز، فلا تتحوّل إلى أحاسيس، وأن تقف كميّات من الأحاسيس، فلا تتحوّل سلوكاً... هو: القوّة والضعف في المفاهيم والغرائز والأحاسيس، فبينما تأخذ الغريزة الأقوى والمفهوم الأقوى طريقهما ليتجسّدا في النفس إحساساً، يبقى المفهوم والغريزة الأضعف، مجرّد مفهوم مختزن في الذهن، ومجرّد نزعة في النفس.

وبينما يأخذ الإحساس الأقوى طريقه ليتجسّد سلوكاً، يبقى الإحساس الأضعف مجرّد إحساس مختزن، لا يحرّك عصباً ولا يدفع إلى عمل...

وتبرز هنا بوضوح حاجة الإنسان إلى الدين، فما دامت نفس الإنسان تحوي كميّات كبيرة من الغرائز ـ الميول الطبيعيّة الخيّرة والشريرة ـ وما دام تركها وشأنها يؤدّي إلى غلبةِ الغرائز التي تملك الإثارة من الظروف الحياتيّة للإنسان، وهي الغرائز الجنسيّة، والأنانيّة، والغذائيّة على الأكثر...

فإنّ معنى ذلك: أن تأخذ هذه الغرائز طريقها لتتجسّد إحساساً فسلوكاً، ويعيش الإنسان بها على حساب مفاهيمه وعقله، ولا يكون فرق بينه وبين الحيوان، لأنّ كلاً منهما حينئذٍ يصدر في سلوكه عن مجرّد الغريزة وحسب: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ**﴾ محمد-١٢.

أمّا الدين، فهو يقدّم للإنسان المفاهيم التي تنمّي في نفسه الغرائز الخيّرة، وتهذّب الغرائز الشريرة، ثمّ يقدّم له المنهج التربوي لتحويل كافّة الغرائز والمفاهيم المُزكاة إلى أحاسيس، ثمّ يدفع بهذه الأحاسيس لتتجسّد في سلوك عملي، ويجعل القائم على هذه العمليّة عقل الإنسان، حيث يُنيط به وعي المنهج التربوي وتنفيذه... إنّه لو لم يكن للدين برهان على كونه ـ حقّاً ـ من عند الله، إلاّ إنّه مشروعٌ بليغ لصناعة السلوك البشري، على ضوء العقل... لكفاه ذلك برهاناً على صحّته وأحقّيّته.

وها هنا يظهر دور الصلاة في التأثير على السلوك، وإبعاده عن الفحشاء والمنكر.

قال أحدهم بصورة عفويّة: «قبل أن التزم بالصلاة، كنت أنظر إلى كلّ شيءٍ باستهتار وبدون تفكير، أمّا بعد التزامي بالصلاة، فقد أصبحت أفكّر في الأمور وأتعجّب كيف كنت أعيش فيما مضى؟»، ثم أخذ يتحدّث عن تغيّر وضعه النفسي، وسلوكه. إنّ مَثَل مجموعة الغرائز والمفاهيم التي تحملها نفس الإنسان، كمثَل مجموعة من الورود والنباتات المفيدة والضارّة، تحملها مساحة من التربة. والصلاة تؤثّر في منع النباتات الضارّة من النموّ في صفحة النفس والتحوّل إلى إحساس فسلوك.

وينتج عن ذلك، إزالة المانع عن النباتات المفيدة، كي تأخذ طريقها في النموّ والإثمار، أي إنّ الصلاة تؤثّر بصورة مباشرة على الغرائز والمفاهيم الشرّيرة، فتمنع ضررها، وبصورة غير مباشرة على الغرائز والمفاهيم الخيرة، إذ تزيل عنها الصعاب...

ونجد تأييد هذا المعنى من حديث الرسول ﷺ الذي مثّل الصلاة بنبع معدني يزيل الأدران: «**أيسرّ أحدكم أن يكون على باب داره حمة،**

يغتسل منها كلّ يوم خَمس مرّات».

ومن ناحية ثانية، فإنّ الصلاة تقوّي وتنمّي الغرائز والمفاهيم الخيّرة وينتج عن ذلك، منع الغرائز والمفاهيم الضارّة من النموّ والأثمار السيئ، فإنّ المقصود بـ «**ذكر الله**» في الآية هو: الصلاة، ومعنى كونه «أكبر من الفحشاء والمنكر»، أنّه يعطي للنفس طاقة دفع للميول الخيّرة، ممّا يجعل ميول الفحشاء والمنكر تتضاءل وتضعُف في جانبها... وكذلك، فإنّ الملاحظ من عطاء الصلاة في أنفُس المصلّين هو: الدفع الإيجابي لنوازع الخير، ممّا ينتج عنه ردع النوازع المنكرة ومنعها عن النموّ.

ومن أبرز ما في الصلاة:

•أنّها توجب الالتزام بالتطهّر اليومي، تطهير الثياب والبدن من النجاسات، وشعور الإنسان بالتزامه في حياته بالتطهّر، مفهوم ينمّي فيه ضمير النزاهة، والترفع عن كثير من أمور الحياة.

•أنّها توجب في نفس الإنسان شعوره بالالتزام طوال حياته بالوقوف بين يدي الله تعالى، ومفهوم الارتباط بالله تعالى مدى الحياة، وبالحضور اليومي بين يديه، ينمّي في الإنسان النزعة العقليّة ـ نزعة الموضوعيّة، والجدّ في الأمور، ونزعة الخشوع للخالق سبحانه.

•شعور المصلّي بالانتماء إلى جماعة المصلّين في العالم، وعلى الأخصّ إلى من يلتقي بهم، ويؤدّي صلاته معهم في المساجد، ومفهوم الانتماء إلى الجماعة والشعور بالشخصيّة الكليّة بدل الفرديّة، ينمّي في الإنسان غريزة حبّ الناس، وغريزة الإيثار، وواضح أنّ هذه الغرائز من المقوّمات الأساسيّة لإنسانية الإنسان.

أمّا وجه تخصيص الصلاة بالنهي عن الفحشاء ـ والتي سبق تحديد معناها القرآني بالمحرّمات، وشراسة اللسان، والبخل ـ فهو يدلّ على أنّ فائدة الصلاة هي بالدرجة الأُولى: للنهي عن هذه المنكرات السلوكيّة الخاصّة، وبالدرجة الثانية: النهي عن عموم المنكرات.

ويمكننا بهذا الخصوص أن نلحظ حالة المصلّين عامّة، ونقارنها بغيرهم من الذين يشابهونهم في الظروف الحياتيّة، لنجد أنّ نسبة الفواحش في المصلّين منخفضة إلى حدّ كبير عن نسبتها في غيرهم، أو نلحظ حالة أُناس لم يكونوا من المصلّين، ثمّ أصبحوا من المصلّين، لنجد الفارق الكبير بين ما كانوا يرتبكون من الفواحش قبل الالتزام بالصلاة وبعده.

وهنا يظهر دور صفة التنزّه، التي ينمّيها الألتزام بالتطهّر الدائم للصلاة، كما يظهر دور النزعة العقليّة، التي ينمّيها الخشوع اليومي أمام

الله، فإنّ مجتمعاً يلتزم بالإنضباط أمام الخالق في فترات يومه، ويُدلي بين يديه بالشهادة، ويتحمّل مسؤولية الاستقامة على منهجه، ويعفّر جبينه على الأرض خاشع الضمير، لهو أقرب من أي مجتمع آخر إلى التعفّف، وأبعد عن الأنغماس في قباحة الخُلق.

والبخْل من الفحشاء ومنشؤه الروح الفرديّة، التي تنمو في نفس الإنسان، فتدفع به إلى الحرص وتمنعه العطاء.

ويظهر هنا ما لشعور الأنتماء إلى جماعة المصلّين من أثر في نهي الإنسان عن فاحشة البخل، فلا شيءَ أنفع في معالجة النزعة الفرديّة الخطيرة، من تنمية النزعة المجموعيّة، وتطوير مفهوم الذات لدى الفرد، ليتّسع لمصالح وأهداف الجماعة بل وإيثارها.

وللصلاة في ذلك دورها الكبير، حيث تسهم إسهاماً رائعاً في إنشاء التجمّع البشري الموحّد، تحت لواء الله تعالى، وفي طريقه.

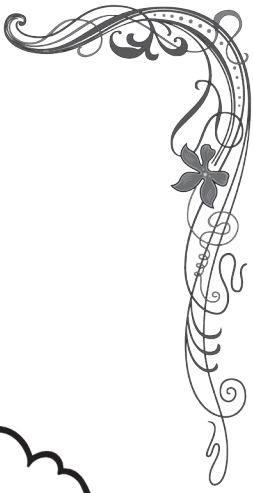

الحلقة
الثانية عشرة

معالجة الصّلاة للهَلَع في الشخصيّة

الهلع هو: فقدان الثبات في الشخصيّة، وسرعة التغيّر بالمؤثرات المختلفة، التي تتوارد على النفس. ولا يقصد بذلك التغيّر من الرضا إلى الغضب، ومن الحزن إلى الفرح، ومن الهدوء إلى الثورة، فإنّ ذلك من لوازم بشريّة الإنسان، وإحساسه بما في نفسه وحياته، فالإنسان الذي يتأثر بمؤثرات الحياة المختلفة، دون أن يخرجه ذلك عن منهج الإسلام في فهم الحياة، والإحساس بها.. ليس إنساناً هلوعاً. أمّا الإنسان الذي يتناقض في مواقفه ومشاعره مع منهج الإسلام في الحياة، فهو الإنسان الهلوع.

فالذي يرى في الوفاء قيمة إنسانيّة، ثمّ يرتكب الخيانة لأنّ فيها مكسباً عاجلاً، هو الإنسان الهلوع، والذي يؤمن بأنّ تقييم الناس يكون بمحتواهم النفسي من الإستقامة، ثمّ تأخذه المؤثّرات المظهريّة فيقيّمهم بأموالهم ومناصبهم... هو إنسان هلوع.

والذي تتغيّر شخصيتّه ومفاهيمه بسبب الفقر والغنى، والمرض

والصحّة، والحبّ والبغض، وهذه البيئة أو تلك... هو الإنسان الهلوع... وما أكثر الأمثلة وألوان الهَلَع في الناس وحياتهم...

والهَلَع سِمة أصيلة من سمات أنفسنا، يتّصل وجودها بتكوين الأنفس، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا**...﴾ المعارج-١٩، الضعف فيه قاعدة، والثبات استثناء، ولم يكن بدّ من هذا التكوين، لأنّ جهاز النفس يجب أن يكون جهازاً حيويّاً، مرهف الألتقاط... وفي ظرف تكثر فيه جهات الإرسال، وتتنوّع الموجات، يحدث أن يمتلئ الجهاز بالموجات الطوليّة والعرضيّة، السالبة والموجبة، المتواردة عليه.

يخرج أحدنا إلى عمله، فيسعده التوفيق بصديق حميم، طالما اشتاق إلى رؤيته، فيعتنقان بدموع الفرح، وذكريات الأخوّة، فتمتلئ نفسه حبّاً للحياة ومعانيها وأشيائها...

حتى إذا زحمه العمل، وأزعجه أمر، إمتلأت نفسه نفرةً من الناس وغيظاً... ثمّ إذا تسلّم مرتّبه الشهري، عاد الرضا إلى نفسه... فإذا رجع إلى منزله، ووجد طفله قد فاجأه المرض، عادت الحياة سوداء في عيْنيه، فإذا غادرته الحمّى في وقت لاحق من الليل، وارتاح إلى نوم رفيق، عادت نفسه مزيجاً من الرضا والغضب والألم والراحة!

في يوم واحد تتوارد على نفس أحدنا ألوان الشرّ والخير.. فما بالك بحياتنا الطويلة، وهي مسيرة بين الأشواك والزهور، في سَهل الدرب وحَزَنه، ونسيمٍ عليل، وسمومٍ لافح... ، ومسرّات وآلام...

يبدو أن الهَلع في الشخصيّة أمر لا مفرّ منه، ما دام ينبع من إرهاف أنفسنا، واختلاف المؤثّرات في حياتنا. لكنّ الإسلام يرى أن باستطاعة الإنسان أن يتخلّص من الهَلع، بل ويرى في الهَلع تناقضاً في الشخصيّة وتمزّقاً ضارّاً... فأنْ تعيش في الحياة وتمارس خيرها وشرّها، لا يمنع أن تكون نفسك ثابتة النظرة، موحّدة المشاعر، متعالية على ما ينتابها من المؤثّرات.

ومفتاح ذلك في رأي الإسلام، أن تعرف المفهوم الواقعي للخير والشرّ، إنّ ما تراه يملئ حياة الناس من «خيرٍ وشرٍّ» ليس هو في الحقيقة خيراً ولا شرّاً، فلا الفقر ولا المرض، ولا الآلام والنكبات، والموت بشرٍّ ولا خير...! ولا الغنى والرفاه، ولا الجاه العريض والقوّة الواسعة، بخير ولا شرّ...! إنّها جميعاً عناصر أوليّة، وعجائن بيديك تجعلها خيراً أو شرّاً... يقول الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَن * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ**﴾ ١٥-١٧- الفجر.

كلاَّ.. فلا هو التكريم والخير في النعماء، ولا هي الإهانة والشرّ في الضرّاء... إنّما هما صحيفتان مقدّمتان لك تملئ كلاًّ منهما بما شئت... فقد تكسب بثروتك شرّاً، وقد تكسب خيراً، وقد تكسب بفقرك خيراً، وقد تكسب شرّاً... والحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، والجميل والدميم، والذكي والغبي، والمشهور والمغمور، كلّ منهم قد يكسب بما هو فيه خيراً، وقد يكسب شرّاً، لأنّهم جميعاً يملكون عجائن قابلة للتحويل إلى الخير وإلى الشرّ، وبدرجات واحدة من القابليّة.

هذا هو التقييم الإسلامي لأشياء الحياة، وللمؤثّرات الناتجة عنها، موادّ خام من نوع واحد، لا بالخير ولا بالشرّ، وإن تراءت لأعيننا خيراً وشرّاً... ومن ثمّ، وجب في نظر الإسلام أن تمسّ هذه المؤثّرات سطح النفس، مساساً دون أن تنفذ إلى عمقها، وأن يكون المنبع لمواقف النفس وأحاسيسها، الخير الحقيقي لا المظهري، رضا الله تعالى ورضاه وحده... رضا الله الذي هو: تحويل المادّة الخام إلى خير، تحويل الابتلاء إلى نجاح... فبهذا تطمئنّ النفس إلى الخير الحقيقي، وتتخلّص من الهلوع صعوداً وهبوطاً، مع ما يتراءى لها من خير وشرّ.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**عجبت للمرء المسلم، لا يقضي الله عزّ وجلّ له قضاءً إلاّ كان خيراً له، وإن قُرّض بالمقاريض كان خيراً له،**

وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له....».

إنّه الخير المطلق المضمون من مصدره، الموصول في منبعه، تتنعّم فيه النفس المؤمنة، وهي تمشي بين الأشواك والورود، وتقطع الحياة بنعمائها وضرّائها، دون أن تجزع من ضرّاء أو تطغى في نعماء، ودون أن تخضع في مواقفها وأحاسيسها لمؤثّرات الخير والشرّ الظاهريين...

وكذلك الإيمان، يتعالى بالنفس عن الهَلَع بمؤثّرات الحياة، ويهبها الطمأنينة في كلّ حال:

يروى أنّه عندما أوثق البابليون نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، ووضعوه في المنجنيق، ليلقوا به في نارهم المضطرمة، أتاه جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة ؟ فأجابه عليه السلام بإطمئنان: أمّا إليك يا أخي فلا!

ويخرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من بلده مكّة مهاجراً برسالته، بعد أن أجمع المكّيون على عدائه وقتله، فلا تنفذ إلى نفسه الشريفة ذرّة من الحزن أو الجزع، ثمّ يدخل مكّة فاتحاً في جيش من جند الله، فلا تنفذ إلى نفسه الشريفة ذرّة من زهو الأنتصار الشخصي، بل يدخل خاشعاً ساجداً لله على قربوس جواده! وتحلّ النكبات بالمؤمنين عبر التاريخ، فلا يرون فيها إلاّ رضوان الله، ويقطعون الحياة بحلوها ومرارتها، فيرونها حلوة

كلّها برضوان الله...

إنّ الشخصيّة المؤمنة هي الاستثناء الوحيد من الهلع المرير، الذي يعصف بالناس من حولك... فمن أين تملك يا ترى هذه الوحدة المتينة الجميلة في الموقف والإحساس ؟ وتنتصر بها على سِمة الهلع العميقة ؟

يحدّد القرآن الكريم ثماني صفات لهذه الشخصيّة:

الصفة الأولى والأخيرة منها تتّصل بالصلاة ودورها في معالجة الهلع:

﴿إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ».

١٩ - ٣٥ المعارج.

والمقصود بالدوام على الصلاة في الفقرة الأُولى: الـدوام على النوافل، وبالمحافظة على الصلوات في الفقرة الثامنة: المحافظة على الفرائض.

وبهـذا يكون المعنى: أنّ مداومة الإنسان على صـلاة النافلة، ومحافظته على صلاة الفريضة، هما عاملان على رأس وفي ختام ثمانية عوامل للتخلّص من الهَلع، وكسب الاطمئنان والوحدة في الشخصيّة.

إنّ الإيمان بالمفهوم الواقعي للخير والشرّ، إنّما يمثّل الجانب النظري من تماسك الشخصيّة، ولذا قلنا إنّه مفتاح الانتصار على الهلع في نظر الإسلام، أمّا الجانب التطبيقي، فهو تحويل هذا المفهوم إلى قرارةٍ في النفس، ورؤية يوميّة فيها... وأيّ شيءٍ ينهض بذلك غير الصلاة ؟

في أيّامنا الطويلة التي نقطعها بين مؤثّرات الحياة، وضغوطها على أنفسنا، وعصفها برؤيتنا ومشاعرنا، لا نجد في الحياة دوحةً تعيد إلينا اطمئناننا وبصيرتنا، كدوحة المثول بين يدي الله، والأغتراف من معينه، والأعتصام به.

الدوحة الظَلِيْلة التي تدخلها متعباً من الأثقال، مشوّشاَ من لبس الهوى واعوجاج الناس، وما أن تستظلّ بركعتين منها حتى تنزاح عنك

الأتعاب، وينكشف عن قلبك الهوى، وتستقيم لك البصيرة، فتعود جديداً لحياتك مليئاً بالحياة.

أنظر إلى سرّائك وضرّائك، إلى كلّ ما يملئ نفسك ويعترض أيّامك من ثمرات الحياة، من تعب وارتياح، وفقدان ووجدان، ودموع وبسمات، وآلام كالجبال... كيف إذا مزجتها بالصلاة وهبتك الصلاة فيها البصيرة، وأنارت لك الجادّة، وأساغت لك مرارة الحنظل، وعطّرت لك هناءَة النعيم...

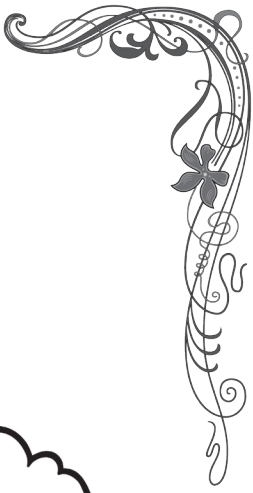

الحلقة
الثالثة عشرة

صلاة الكُسالى وتضييع الصّلاة....

صلاة الكُسالى هي: الصلاة التي تفقد حرارتها، العاطفيّة والفكريّة، وتتحوّل إلى عمل جامدٍ، بعد أن كانت حقلاً خصباً جميلاً.

والكسل الذي يسبب فقدان الصلاة هو: حالة مرضيّة تعرض للنفس، وتنشأ تارة من الجسد، وتارة من إرهاق النفس، وثالثة من إنحرافها.

فأمّا كسل الجسد: فهو خللٌ في وظائفه الفسيولوجيّة الواسعة، لا يلبث أن ينعكس على النفس، بقانون الترابط الصميم بينها وبين الجسد، فيحدث أن تصاب النفس بالخمول، وتتضاءل قدراتها على العمل والاستيعاب والتفاعل... ثمّ تزول إصابة النفس بهذه الحالة بزوال إصابة الجسد. وليس هذا الكسل الناتج عن الجسد مذموماً في الشريعة الإسلامية، ما دام لم يَحدث بسبب الإنسان. قال الله عزّ وجلّ: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ ٢٨٦- البقرة. وقال عزّ وجلّ: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**﴾ ٧ - الطلاق.

وفي الحديث الشريف: «**كلّ ما غلب الله عليه، فهو أولى بالعُذر فيه**». ونصوص أخرى تؤكّد هذا المعنى، ومن ورائها حكم العقل بذلك.

وأمّا كسل الإرهاق النفسي: فينتج عن الإكثار من بذل الجهد، دون إعطاء النفس قسطها من الراحة، فيحدث أن تصاب بإعياء وكللٍ عن الإستيعاب والتفاعل.

وهذا الكسل ليس مذموماً في الشرعية الإسلامية أيضاً، ما دام الجهد الذي سبّبه مشروعاً، فقد ورد في الحديث الشريف أن هذه الأُنفس تملّ كما تملّ الأبدان، وأنّ لها إقبالاً وإدباراً، وأنّ القلب تمرّ عليه الساعة من الليل والنهار ما فيه إيمان ولا كفر، شبه المُضغة وشبه الثوب الخَلِق ونصوص أخرى تدلّ على أنّ حالة الإعياء والفتور هذه، عارض طبيعي في حياة النفس البشريّة، لا تلبث أن تزول فتعود النفس إلى نشاطها.

وأمّا كسل الأنحراف فهو: خمول يتّخذ صفة النُفْرة، وعدم الانسجام مع نشاطات نافعة، وقد يكون جزئيّاً، فينحصر بالضجر من أعمال معيّنة كالصلاة، وتلاوة القرآن مثلاً، وقد يكون كليّاً، فيشمل كافّة النشاطات النافعة، حيث تصاب النفس بالضجر من جميعها، وتتركّز رغباتها على

نشاطات ضارّة أو تافهة، وغالباً ما يكون كسل الأنحراف هذا مستمرّاً دائماً، عكس كسل الإرهاق الذي يكون موقوتاً وموجزاً في الأكثر.

والانحراف الذي يثمر هذا الكسل، يكمن في عمق شخصيّة الإنسان، في نوعيّة مواجهته للحياة وأشيائها... فإنّ مواجهة الناس للحياة تكون تارة بروح جادّة ومسئولة، وتارة بروح انتهازيّة غير مسئولة، وثالثة بقدرٍ ناقص من الجدّ والمسؤولية.

أمّا الذي يواجه الحياة بروح جادّة مسئولة أمام الخالق عزّ وجلّ، فلا يمكن إلاّ أن يكون حيويّاً، متفاعلاً مع الحياة في كلّ جانب من جوانب سلوكه، فيما يفعل وفيما يرفض.

وأمّا الذي يواجه الحياة بروح غير مسئولة، كالروح الانتهازيّة والشهويّة ـ روح النفاق ـ فإنّ هذه الروح بطبيعتها الوصوليّة ستفرض عليه المُمالئة، والقيام بأعمال لا يقتنع بها، ولا يؤدّيها إلاّ أداء شكليّاً، لغرض الوصول إلى مآربه...

ولهذا يعجز المنافق مهما أعْمل قدرته في التمثيل والتضليل، أن يعطي أعماله الخيّرة روح الخير ـ كالذي يؤمن بها ويتفاعل معها ـ فيحدث أن تنعكس روحه المنافقة على القيم التي يتحدّث عنها، والصلاة التي

يصلّيها، والمال الذي ينفقه، وأحياناً يتّضح خموله الروحي ونفاقه، فتراه يشعر بعمل الخير ضريبة مكروهة يدفع إليها نفسه دفعاً، بينما تراه يمارس أعماله النفعيّة بكلّ إقبال.

يقول الله عزّ وجلّ عن المنافقين: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ ٤ – ٧ الماعون. ويقول عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ * فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**﴾ ٥٣ – ٥٦ – التوبة.

ويقول عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾ ١٤٢ – ١٤٣ – النساء.

وأمّا الذي يواجه الحياة لا بروح النفاق، ولكن بقدر ناقصٍ من الجدّ

والمسؤولية، فهو المؤمن الذي لم تكتمل فيه روح الإيمان، ولم يستوفِ دفعة الحيويّة والتفاعل مع السلوك الذي يؤمن به، وهذه الروح الناقصة تسبب فيه كسلاً نفسيّاً، يختلف في قدره ونوعه عن كسل النفاق، ولكنّه يشترك معه في أنّه كسل ناتج عن انحراف نفسيّ في مواجهة الحياة.

ودرجات هذا الكسل تتفاوت... فربّما كان كسلاً مُطبقاً على جميع النشاط الخيّر، حتى يكون خمولاً وجموداً في القلب، وربّما كان كسلاً عن اتخاذ المواقف الحاسمة في الحياة، أو كسلاً عن محبّة الناس، أو عن تلاوة القرآن والصلاة... في حالات معيّنة أو دائمة.

ويتّسع هذا الكسل في الناس، حتى ليكون لكلّ مؤمن منه نصيب قلّ أم كثر، ولا يسلم منه كليّاً إلاّ من بذل مع نفسه جهداً تربويّاً كبيراً فعصمه الله عزّ وجلّ. وعلى المسلم الذي يعرض له الكسل في صلاته أن يبحث عن سببه: فإن كان ناتجاً عن عارض صحّي، فدواؤه المعالجة الصحيّة، وكلّ ما غلب عليه الله عزّ وجلّ فهو أولى بالعذر فيه، على حدّ تعبير الإمام الصادق عليه السلام.

وإن كان ناتجاً عن تقصير في الجدّ والتفاعل مع السلوك، فلا بدّ للمسلم أن يخرج بصلاته من صلاة الكسالى، إلى صلاة الوعي والنشاط

فيقوم:

أوّلاً: بتفهّم الصلاة ومدى ضرورتها الذاتيّة والموضوعيّة لوجوده، ويحسّ بها مسؤوليّة محبّبة من أجل مصلحته، لا من أجل الله الغني تبارك وتعالى.

ويقوم ثانياً: بتغيير طريقة أدائه للصلاة، فلا يكون همّه حينما يبدأ بها أن ينتهى منها، ولا يعدها عملاً مقفلاً يقوم به دون تفهّم، بل حقلاً جميلاً يعيش فيه بروحه وفكره وجسده، ويجني من عطائه... ليحسّ أحدنا على الأقل أنّ الله عزّ وجلّ ينظر إليه في صلاته، وأنّ الملائكة يؤمّنون على دعائه ويستغفرون له.

وحينما يبدأ المسلم في التغلّب على هذا الكسل، فسيجد الله سبحانه في عونه، وسيجد صلاته أصبحت أكثر توجها.

أمّا كسل النفاق فلا شفاء منه إلاّ بالشفاء من مرض النفاق، باستئصال الروح المريضة واقتلاعها من أعماق الشخصيّة، ومواجهة الحياة بروح مؤمنة مسؤلة.

وتضييع الصلاة مسألة متّصلة بالكسل... فما صلاة الكسالى إلاّ

لوناً من ألوان إضاعة الصلاة. ومن ملاحظة نصوص القرآن الكريم والسنّة الشريفة في إضاعة الصلاة، نجد أنّها تقصد بالإضاعة معنيين: الأستخفاف بالصلاة، وترك الصلاة كليّاً.

أمّا الأستخفاف بها فهو يشمل: عدم تفهّم الصلاة في أحكامها وشروطها الشرعيّة، وتأخيرها عن وقتها، وتركها جزئيّاً، وعدم التأنّي في أدائها، وعدم التوجّه بالقلب والتأثّر بها حال أدائها... وإليك مستمعي الفاضل بعض النصوص التي تخصّ هذه الألوان من التضييع:

عن النبي ﷺ قال: «**ليس منّي من استخفّ بصلاته، لا يَرِد الحوض عليّ، لا والله..**». وعنه ﷺ قال: «**لكلّ شيءٍ وجه، ووجه دينكم الصلاة، فلا يَشِينّ أحدكم وجه دينه...**». وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**بينا رسول الله ﷺ جالس في المسجد، إذ دخل رجل، فقام يصلّي فلم يُتمّ ركوعه ولا سجوده، فقال ﷺ: نقرٌ كنقرِ الغراب، لئن مات هذا الرجل وهكذا وصلاته ليموتنّ على غير ديني**». **وعن النبي ﷺ قال: «الصلاة ميزان، من وفّى استوفى**».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إذا صلّيت صلاة فريضة فصلّها لوقتها صلاة مودّع يخاف أن لا يعود إليها أبداً، ثمّ اصْرف بصرك إلى**

موضع سجودك، فلو تعلم مَن على يمينك وشمالك لأحسنت صلاتك، واعلم أنّك بين يدي من يراك ولا تراه».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ أسرق النّاس من سرق من صلاته**». وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إنّ العبد لَيُرفع له من صلاته نصفها، أو ثُلثها، أو ربعها، أو خُمُسها... فما يُرفع له إلاّ ما أَقْبلَ عليه منها بقلبه...**».

وأمّا المعنى الثاني ألا وهو ترك الصلاة كليّاً فقد حذّرت من خطورته نصوص كثيرة، وأهمّ حقيقتين في هذه النصوص، أنّ ترك الصلاة يعتبر قطع آخر رابطةٍ تربط الإنسان بالله عزّ وجلّ، وأنّ تركها يقترن بفقدان الإنسان للمقياس السلوكي، الأمر الذي يجعله فريسةً للشهوات الرخيصة. أنطق الله عزوجل الخنزير الحمد لله الذي جعلني خنزيرا ولم يجعلني تارك صلاة هذا بالإضافة إلى براءة نبينا محمد صلى الله عليه وآله منه فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: لا تدع الصلاة متعمّداً، فإنّ من تركها متعمّداً، فقد برئت منه ملّة الإسلام**».

ماذا يبقى من إسلام «المسلم» إذا ترك مؤثّرات الحياة المختلفة تتكاثف على نفسه، على فكره ومشاعره وإحساسه بالحياة، دون

أن يجلوها بوقفة بين يدي نفسه ويدي الله، تعيد إليه روح الإسلام واستقامته...؟

إنّ مَثله مَثَل الذي يؤمن بالنظافة ويريدها، ولكنّه يترك الغبار والأدران تتكاثف على جسده، فهو بالحقيقة لا يريد النظافة ولا يؤمن بها إيماناً فعّالاً.

فليس من الغريب إذاً أن يكون ترك الصلاة بمثابة قطع آخر رابطةٍ تَصِل الإنسان بملّة الإسلام، ما دامت هذه الفريضة من أوّل الشروط العمليّة لاستكناه هذه الملّة والعيش على هداها.

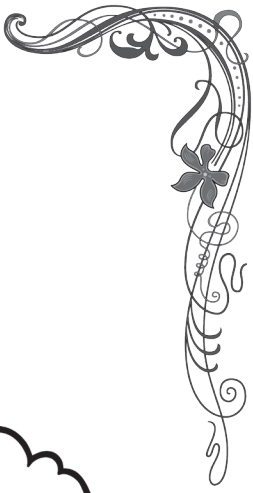

الحلقة
الرابعة عشرة

التجمّع للصّلاة أي الحياة ضمن الجماعة

حاول مرّة أحد الأشخاص أن يثبت أنّ رغبة الإنسان في الحياة الإجتماعية، ليس لها عمق في نفسه وراء حاجاته الإقتصادية.

قيل له: ألا تحسّ في نفسك حاجة للحياة مع الناس وراء انتفاعك منهم في معيشتك؟

قال: بلى.

قيل له: هذا دليل على أنّك اجتماعي بالطبع قبل أن تكون اجتماعيّاً للنفع.

قال: هذا تطبّع تربينا عليه، وليس طبعاً في عمق أنفسنا.

قيل له: افترض أنّ الناس لم يتربّوا على حياة الجماعة، وأنّ كلّ فرد منهم نشأ مكفيّ الحاجات، أفتراهم كانوا يعيشون آحاداً؟

قال: نعم.

قيل له: وعاطفة غريزة الجنس مثلاً، ألا كانت تدفع بالرجل والمرأة

إلى التزاوج؟

وعاطفة الأُمومة والأبوّة، ألا كانت تدفع بالأبوين إلى احتضان الصغار؟

فها قد تكوّنت نواة الجماعة ـ الأسرة ـ ونتج عنها القرابة، ونتج عنها الحياة الإجتماعية.

وثـراء الإنسان الفكري، ألم يكن يدفعه إلى البحث عن حقل لأفكاره. وأُنـس الإنسان بالإنسان، وميله إلى مزج نفسه بأُنفس الآخرين...

واستطردنا نحشد الأمثلة من أفكار الإنسان وعواطفه، نفنّد بها افـتراض هذا الشخص حتى أقتنع بأنّه اجتماعي بطبيعته، وأنّ الحياة الأصليّة للإنسان والحيوان والطيور هي الحياة ضمن الجماعة والأسراب.

إنّ لحياة الإنسان الإجتماعية اي «الحياة ضمن الجماعة» منبعين اثنين وليس منبعاً واحداً، فمنبع من حاجاته المعيشيّة، ومنبع وراء ذلك، من إنسانية الإنسان وعمق نفسه، وكذلك اتّسقتْ في تقدير الله عزّ وجلّ

حاجة الفرد البشري للجماعة في معيشته، مع حاجته لهم في إنسانيّته.

الحاجات المعيشيّة بسبب كثرتها وتنوّعها تقول للإنسان: إنّك لا تستطيع أن توفّرني إلاّ عن طريق الخباز، ومعمل الطحين والفلاح، ومصنع الآلات الزراعية، والبنّاء والنجّار والنسّاج والسائق... وعشرات ومئات الناس الذين يُسهمون في إقامة حياتك، وتسهم من جانبك في إقامة حياتهم. وإنسانية الإنسان بدورها تقول له ـ ألوان الحبّ التي يحملها في أعماقه ـ: ابحث لي عمّن أحبّ، عن صاحب خُلق كريم، وعن شجاع نبيل، وعن زوجة وفيّة، وعن أولاد، وعن إنسان كامل الإنسانيّة... ابحث لي عمّن آنس به، وآلفه واسكن إليه، وأفيض عليه من روحي، ويفيض عليّ من روحه. وتقول له ـ ألوان الأفكار والمشاعر ـ: ابحث لي عن مستَقَر، عن فكرٍ أعبّر عنه، وشعور أتسرّب فيه، عن أفكار أتكامل بالتفاعل معها، ومشاعر أتكامل بالامتزاج فيها.

وتقول له نزعته لخدمة الآخرين... ويقول له حنانه إلى أبناء جنسه وميله إلى عنصره... وتقول له أعماقه بكلّها: أنا لا أستطيع العيش إلاّ في واحة البشر...

إنّ إنسانية الإنسان كحليب الأُمّ، ينبع من دمها، ويفيض في

صدرها، مطالباً بالوليد الرضيع، فإن هو لم يجد رضيعه لم يؤدّ دوره، ولم يبلغ هدفه، وارتدّ على الأمّ ألماً وضيقاً... وكذلك النفس البشريّة تفيض بالرغبة في الامتزاج بالجماعة، فإن هي لم تجد الأنفس التي تكتمل بالتفاعل الإنساني معها، لم تبلغ تكاملها وارتدّت على صاحبها ضموراً وألماً وضيقاً.

أمّا الإسلام المنهج الربّاني الخبير بحاجات النفس البشريّة، فإنّه لم يعط الإنسان خبز جسده حتى أعطاه خبز إنسانيّته...فبذلك معاً يكون الإنسان إنساناً في رأي الإسلام.

والنظريّة الإجتماعية في الإسلام موضوع دراسة مستقلّة أو دراسات...فالإسلام لون حضاري متميّز، وله نظريّته المستقلّة في الأُسس، والتشريعات، والتوجيهات، التي يقيّم عليها مجتمعه... في مقابل الأُسس والتشريعات والتوجيهات «أو في مقابل اللانظريّة» التي تقوم عليها مجتمعات الحضارة الماديّة القائمة، التي انحرفت بالفطرة الإجتماعية، وبالحقوق الإجتماعية، وبالعلاقات الإجتماعية إلى درجة خطيرة، لم تشهدها حتى مجتمعات الجاهليّة الأُولى!

وان هناك تجمّعات أوجبها الإسلام ودعا إليها، ومن أهمّ

مظاهر الحياة الإجتماعية في الإسـلام، التجمّع السنوي للحجّ في أرض الله المقدّسة، وفي المشاهد المشرّفة، والتجمّع لصلوات الأعياد، والاحتفالات والمناسبات، والتجمّع الأسبوعي لصلاة الجمعة، والتجمّع اليومي لصلاة الجماعة في المساجد. صحيح أنّ الإسلام أجاز أن تؤدّى الصلاة، وتقام الجماعة في البيت، أو الساحة أو في أي مكان مناسب، ولكنّ المكان الطبيعي المفضّل لديه هو المسجد. وفكرة المسجد أو الأماكن العامّة المنسوبة إلى الله عزّ وجلّ، فكرة قائمة في الشرائع السابقة قبل الإسلام، ولكنّ الذي فعلته الشريعة الإسلامية، أنّها صحّحت هذه الفكرة من رواسب الانحراف عن الشرائع السابقة، وأعطتها مضمونها الاجتماعي وموقعها من حركة الحياة

آثار التجمّع للصّلاة:

من أهمّ منافع التجمّع للصلاة الامتزاج الإنساني، ونقصد به: إرواء هذا التعطّش القائم في عمق النفس، للنفوذ إلى الأنفس الإنسانيّة الأخرى والتفاعل معها... والألفة بالأُنفس البشريّة والأمتزاج بها.

ضرورة نعرف قيمتها حينما نفقدها في حياتنا، كما حدث لمجتمعات الحضارة الغربية القائمة، ونعرف روعتها حينما نتوّفر عليها باكتمال، كما

في المجتمعات التي تعيش روح الإيمان في الماضي والحاضر، والتي يتسنّى لها في التجمّع لأداء الصلاة الجوّ الخصب لهذه الأُلفة والاكتمال...

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ المؤمن ليسُكن إلى المؤمن، كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد**». وعنه قال عليه السلام: «**إنّ سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا، وإن لم يظهروا التودّد بألسنتهم، كسُرعة اختلاط ماءِ السماء بماء الأنهار، وإنّ بُعد ائتلاف قلوب الفجّار إذا التقوا، وإن أظهروا التودّد بألسنتهم، كبُعد البهائم من التعاطف، وإن طال اعتلافُها على مِذودٍ واحدٍ**». وعن جابر بن يزيد الجُعفي قال: تقبّضت بين يدي أبي جعفر فقلت: جعلت فداك، ربّما حزنت من غير مصيبة تصيبني، أو أمر ينزل بي، حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي! فقال :

«**نعم يا جابر، إنّ الله عزّ وجلّ خلق المؤمنين من طينة الجنان، وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك، المؤمن أخ المؤمن لأبيه وأُمّه، فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح، في بلد من البلدان حزنٌ حزنت هذه، لأنها منها**».

ومن أهمّ منافع التجمّع للصلاة: تعرّف الناس بعضهم على بعض، بحكم الألتقاء اليومي المتكرّر، وفي التعرّف على الناس، على أوضاعهم

وقضاياهم وأعمالهم، مشاركة لهم في آلامهم وأفراحهم ـ ولو بقدر ـ وفيه فائدة الاعتبار بنتائج تجاربهم ومواقفهم، وفوائد معرفة أنفس الناس وطاقاتها وميولها، ومعرفة أوضاع المجتمع، والأتجاهات السائدة والخفيّة فيه، وقوانين الفعل وردّ الفعل في قضاياه وأحداثه.

وواضح ما للترّسل في هذا التجمّع الذي يفرضه التوضّؤ والانتظام، إلى جانب من يصادف من المؤمنين، والأشتراك معهم في أداء الفريضة، وما يرافق ذلك ويتبعه من ألوان العواطف والمصافحة والأحاديث... ما لهذا الترّسل من دور في الخروج بالإنسان من العزلة والانطواء إلى الأنفتاح الفكري والنفسي على الآخرين.

ومن أهمّ منافع التجمّع للصلاة: الشعور بالروح المجموعيّة، وظهور الكيان الموحّد... وقد حرصت الرسالة الإلهيّة على الكيان الإجتماعي الموحّد، كما حرصت الرسالات البشريّة والأنظمة المعاصرة على الوحدة الوطنيّة والقوميّة والمصلحيّة، ولكنّ الرسالة الإلهيّة افترقت عن دعوات الوحدة جميعاً: في المنطلق الذي أقامته للوحدة وفي الأجواء التي وفّرتها لها.

فالمنطلق الصحيح للوحدة الإنسانيّة في رأي الإسلام ـ سواء في

ذلك الوحدة بين اثنين من البشر أو بينهم جميعاً ـ هو الرابطة الفكريّة الاعتقاديّة، أمّا الروابط الوطنيّة والقوميّة والمصلحيّة فهي منطلقات خاطئة في رأي الإسلام.

ولهذا كان طابع الجماعة الإسلامية طابعاً فكريّاً بحتاً، وكان الشرط الوحيد للانتماء إلى جماعة المسلمين، الإيمان بالحقّ الذي آمنتْ به، دون اعتبارٍ لعنصرٍ أو إقليم أو مصلحة مادّية، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ ١٥٣ – الأنعام.

﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِّ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُّ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ ١٠٣ – آل عمران.

وفي الحديث الشريف «**من خَلع جماعة المسلمين قَدْر شِبْر، خَلع ربْقة الإيمان من عنقه**» إنّ الإسلام بعد أن يقدّم للناس جملةَ مفاهيمه الإجتماعية عن الإنسان وعن الذات، وعن الأخوّة الحقيقيّة المصيريّة بين أهل الحقّ، وعن مسؤوليتهم المشتركة، وعن ضرورة الكيان

الإجتماعي الموحّد، وعن عطف الله وحنانه ورعايته لهذا الكيان... يهيئ للمؤمنين في صلاة الجماعة اليوميّة جوّاً تربويّاً حافلاً، لتركيز هذه المفاهيم وتجسيدها...

وبالإستطاعة أن نلاحظ: أنّ السِمة البارزة في التجمّع للصلاة سِمةَ: اللهمّ اهدنا وارحمنا، وارزقنا وانصرنا، بدل اهدني وارحمني، وارزقني... أو قل: إنّها سِمة «أنا» الرساليّة المقدّسة بدل «أنا» الذاتيّة الضيّقة، وكم من فرقٍ بين أنا التي تنفصم عن نحن، وبين أنا التي تعبّر عن نحن وتذوب من أجلها.

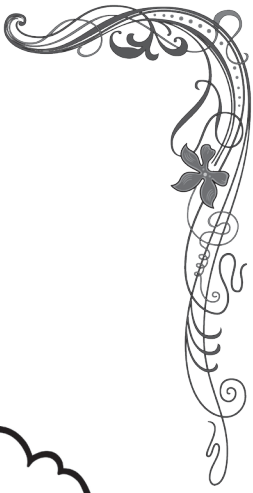

الحلقة
الخامسة عشرة

كيف يصبح قلب من يكثُر الصّلاة ؟

ان اليوم الذي نوفّق فيه لشيءٍ من النوافل بإقبال، يمتاز عن سائر أيّامنا بالحيويّة والعطاء، ذلك أنّ النوافل تملئ القلب بالإحساس بالله، والوثوق في السلوك والاطمئنان إلى الحياة وما فيها... من هذه الأيّام الغنيّة في حياتنا، ومن معرفة النماذج التي نؤدّي النوافل دائماً، نستطيع أن ندرك ثراء القلوب المكثرة من الصلاة.

روي ان شابّاً متوسّط في وعيه وذكائه، ألقى الله في قلبه حبّ الصلاة، فأخذ يؤدّي فرائضه بوعي، ثمّ أخذ يؤدّي النوافل ما عدا نافلتي الظهر والعصر، ولم تمض مدّة حتى ظهر عطاء النوافل في هذا المسلم... لقد مزجته الصلاة، بالنور حتى تبلورت قسماته وتفتّح ذهنه وأطمأنّ قلبه، أصبح يستوعب ما يقرأ، ويجيد أن يفكر، ويؤثّر حينما يتكلّم... ولم يوجد هناك سبباً لهذا التكامل، إلاّ أن الإكثار من الصلاة أعطاه تألقاً باطنيّاً انعكس على قسماته وحياته. والمؤمنون الواعون في التاريخ وفي عصرنا، الذين تتميّز قلوبهم ونتاجهم بالنبوغ، الذين توحي إليك قسماتهم وحديثهم بالإطمئنان... تفحّص عن عوامل تكوين

شخصيّاتهم، لتجد أنّ من أهمّها كثرة الصلاة. والمتانة والحيويّة والحرارة الطمأنينة والحنان الغامر... هذا التميّز الذي نراه في سلوك الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، إنّما من جذوة النور التي يؤجّجونها في أنفسهم الشريفة على عين الله... وهذه الجذوة المتّقدة مدانة فيما هي مدانة للإكثار من الصلاة.

صحيح أنّهم عليهم السلام يأخذون من يومهم ساعات يمضونها في الصلاة، ولكنّهم يأخذون من الصلاة لساعات عملهم طاقةً تجعلها أضعافاً مضاعفة، فهم بالإكثار من الصلاة يضيفون إلى يومهم أيّاماً، وإلى عمرهم أعماراً، ويطبعون نتاجهم بالنور والبركة والخلود.

عن الإمام الصادق قال في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وآله:

«كان صلى الله عليه وآله يُؤتى بطهور، فيُخْمر عند رأسه ـ أي يغطّي الإناء ـ بخُمرة ـ قطعة قماش أو خوص ـ ويوضع سواكه تحت فراشه، ثمّ ينام ما شآء الله، فإذا استيقظ جلس، ثمّ قلّب بصره في السماء، ثمّ تلا الآيات من آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۞رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ۞ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

ثمّ يستنّ - أي يغسل ويتطهّر - ثمّ يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات، على قدر قراءة ركوعه وسجوده، على قدر ركوعه، يركع حتى يقال: متى يرفع رأسه ؟! ويسجد حتى يقال: متى يرفع رأسه ؟! ثمّ يعود إلى فراشه، فينام ما شاء الله، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلوا الآيات من آل عمران، ويقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنُّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد ويصلّي الأربع ركعات كما ركع قبل ذلك. ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثمّ يستيقظ ويجلس فيتلوا الآيات من آل عمران، ويقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنُّ ويتطهّر، ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلّي الركعتين - أي يصلّي ركعات الوتر الثلاث، ثمّ يصلّي الركعتين نافلة الصبح -، ثمّ يخرج إلى الصلاة».

وعنه قال: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا أن يتوضّأ، ثمّ يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعوا الله فيهما، أما سمعت الله يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾».

إنّ الأنبياء والأئمّة وكبار المؤمنين ﷺ، ما هزّوا العقل والوجدان البشري من الأعماق، ولا شقّوا الطريق لِلهدْي الإلهي في حياة الناس برغم كلّ الصعاب... إلاّ لأنّهم كانوا يعيشون قضيّة الله عزّ وجلّ مع عباده، ويتربّون بين يديه ساعات كلّ يوم.

دور الصلاة في علاج المشكلة:

إنّ الإنسان مع ما أوتي من قدرة على اليقين، والرؤية في القضايا والحقائق، إلاّ أنّه بسبب ميوله الذاتيّة كثيراً ما يعكّر هذه الرؤية أو يخسرها.

فهل من سبيل إلى التغلّب على هذه المشكلة، والحفاظ على التطابق بين درجة التصديق، التي تمليها المبررات الموضوعيّة وبين الدرجة التي يتّخذها التصديق في أنفسنا ؟ هل باستطاعتنا أن نمنع العامل الذاتي من التدخّل والعبث، صعوداً، وهبوطاً في درجات تصديقنا بالقضايا أو الحقائق ؟

أمّا أصحاب المذهب الذاتي في المعرفة، فلا يَرِد عليهم مثل هذا السؤال، لأنّ العامل الذاتي في رأيهم، سبب في كلّ اعتقاد، بما في ذلك اعتقادهم بمذهبهم هذا طبعاً.

لكن كلامنا على أساس المذهب الذي يؤمن بالقيمة الموضوعيّة للمعرفة، والذي يتبناه الإسلام.

يقوم الإسلام بعلاج المشكلة من جانبين:

الأوّل: إشاعة الطريقة العقليّة في الناس... حتى تكون الأسلوب العام السائد في تفكير الناس وحياتهم...

ومن هذا الجانب فإنّ الإسلام بذاته دعوة تعتمد العقل في إقناع الناس، وتطلب إعْمال العقل في فهم الكون، وإقامة الحياة الإجتماعية على الأُسس العقليّة.

ولم تَعرف الحياة البشريّة كالإسلام مبدءاً اعتمد العقل في أصول التفكير الإنساني وتفاصيله، وأشاع ذلك في أُمّته وغيرها من الأُمم، ورسّخ ذلك في حياة مجتمعه وأجياله، حتى أصبح الطابع العقلي واحداً من أبرز معالم الثقافة والحضارة الإسلاميّة.

والثاني: الدعوة إلى تصحيح السلوك، باعتباره عاملاً في تكوين وتكثيف الميول التي هي العامل الذاتي، أو في تخفيف هذه الميول الذاتيّة وإزالتها.

قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾ البقرة ١١-١٢.

وفي الحديث الشريف: «**ما من شيءٍ أفسد للقلب من خطيئةٍ، إنّ القلب ليُواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلِب عليه، فيصير أعلاه أسفله**».

وفي نصوص عديدة، يؤكّد الإسلام على خطورة السلوك، وأنّه قد يشكّل حاجباً عن الرؤية العقليّة، أو يجعل الرؤية معكوسة تماماً، كما يمكن أن يكون نوراً وبصيرة في العقل.

والصلاة اليوميّة برأي الإسلام، ركن أساس من السلوك الإنساني، الذي يعالج مشكلة تأثير العامل الذاتي ويصحّح الرؤية العقليّة.

كما يشمل معالجة العامل الذاتي في مرحلة ما قبل الجزم، كما يشمل معالجته في نفس المسلم إلى درجات عالية من اليقين الموضوعي، الذي تملك مبرراته قضيّة الإسلام... إنّ الصلاة تزيل عن العقل أغشية الذنوب، ولبس الأهواء، وأدران الخطايا، فتمكنه من معانية القضايا مواجهةً دونما حجاب، وهو التأثير الذي مثّل له الحديث النبوي الشريف الصلاة بـ ـ الحمة ـ أي: بالنبع المعدني الذي ينقّي الجسد من

الأدران.

ومن ناحية ثانية، تجسّد الصلاة أهمّ قضايا الإسلام للعقل، وتجعله يتعامل معها ويحسّها.

إنّ فرقاً كبيراً بين موقف العقل وهو يتأمّل قضايا العقيدة الإسلاميّة، فيجدها تملك المبررات الموضوعيّة للاعتقاد والجزم، وبين موقفه في الصلاة، حيث يُدعى ليتّخذ موقفاً عمليّاً من هذه القضايا.

وبهاتين الناحيتين، تكون الصلاة قد تناولت بالتأثير كلاً من وسيلة الإدراك والقضيّة المدركة، والعامل الذاتي الذي يعوق عن الاحتفاظ باليقين في مستوى المبررات الموضوعيّة، ينشأ من أحد هذين الأمرين...

فالقوّة الإدراكيّة في الإنسان تتعرّض لأنواع من التشويش، فتحتاج إلى صقل وتجديد، والقضيّة المدركة إذا لم تكن من القضايا المعاشة على مستوى الحسّ، تتعرّض للخفوت وتحتاج إلى نوع من التجسيد الحسّي يُيسّر إدراكها للعقل... وهذا ما تفعله الصلاة مع القوّة الإدراكيّة فتجلوها، ومع القضيّة المدركة حيث تجسّدها.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ هذا العطاء العقلي من الصلاة يتفاوت في

الناس، تبعاً لبصيرتهم العقليّة وإقبالهم على الصلاة، وأنّه في الغالب عطاء تلقائي لا يحسّ به الإنسان إلاّ بالتّنبيه، أو بالمقارنة بين رؤية المصلّي، ورؤية غير المصلّي لقضايا الإسلام.

وهكذا يتّضح دور الصلاة الفعّال في تصعيد الاعتقاد بالإسلام، إلى درجات عالية من مستوى المبررات الموضوعيّة، ويمكن أن تقدر ما يترتّب على ذلك نتائج في شخصيّة أُمّة وحياتها، إذ تعيش وضوح الرؤية العقليّة لرسالتها، وأن تقدّر قيمة الطريقة الميسّرة التي ابتكرها الله عزّ وجلّ، لتوفير هذا المستوى من الرؤية العقليّة.

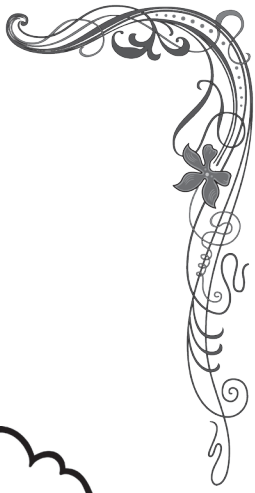

الحلقة
السادسة عشرة

أهمّ المعطيات النفسيّة للصلاة

شعور الأرتباط الفعلي بالله، ورسوله، ورسالته.

فمن الأنحرافات السائدة في العقيدة: أن يتصوّر الناس أن وجود الله سبحانه، وإرساله الرسل، وتنزيله الدين قضايا تاريخيّة وليست فعليّة... يتصوّرون أنّ الله سبحانه كان وجوداً فعليّاً ظاهراً، حينما خلق الكون وأرسل الرسل، أمّا الآن فهو وجود غائب!

فهم يؤمنون به عزّ وجلّ هو إلهاً خالقاً، ولكنّهم يكفرون به ربّاً ومعطياً، ويؤمنون به بادئاً، ويكفرون به مموّناً لما بدأ.. أو هم يغفلون عن هذه الحقيقة، وكذلك الأمر في تصورهم للرسل والرسالة، فكأنّها مسألة تخصّ مرحلة من التاريخ، وفوجاً من الناس..!

أمّا الصلاة فهي تقضي على هذا الانحراف، وتثبت المفهوم الإسلامي عن الله سبحانه، وعن رسله ودينه، فتفتح عقل الإنسان وقلبه على وجود الله وجوداً فعليّاً قيومًا على الكون، ترتبط به ذرّاته وأحياؤه، وظواهره وقوانينه، ارتباطاً فعليّاً مطلقاً.

كما تفتح عقل الإنسان وقلبه على الدين الإلهي، طريقة عيش فعليّة قَرَنها الله بقانون الاختيار، ولا زال هذا القانون قائماً يؤتي ثماره في الناس حتى يبلغ فيهم هدفه... وبهذه الحقائق تبعث الصلاة في النفس أعمق مشاعر الارتباط الفعلي بالله تعالى، ورسله ورسالته.

أمّا مساحة هذه المشاعر فهي الصلاة جميعاً، إذ تدعوك إلى الوقوف أمام الله الحاضر عزّ وجلّ، وتستمرّ في إشعارك به وبهداه إلى ختامها... وأبرز الفقرات التي تعطي شعور الارتباط هذا: سورة الحمد، وخضوع الركوع والسجود، والتشهد...

فالنصف الأوّل من سورة الحمد: يقرّر لمن الامتنان على العطاء الذي يزخر به الكون، كما يقرّر طبيعة العلاقة الملحّة بين الوجود المرحوم وبين الله الراحم، وفي النصف الثاني: تتكلّم أنت مع الله الحاضر سبحانه، معلناً طاعته، ومستعيناً إيّاه في حركة حياتك، ومستهدياً صراطه القائم الذي سارَ به الرسل والمؤمنون، مستعيذاً من طريق المنحرفين الذين يسيرون فعلاً في طريق الغضب والضلال.

وفي خضوع الركوع والسجود تشعرُ بنفسك ذرّة متواضعة من الكون، تخضع أمام منشئها ومعطيها العظيم الأعلى، عزّ وجلّ...

وفي التشهّد تُفصح بالإقرار بالله سبحانه، متصرّفاً وحيداً في الكون، وبرسوله محمّد صلّى، مبلّغاً خاتماً لرسلهِ ورسالاته.

إنّه ليس أبلغ من الصلاة في الانتقال بالإنسان من الإيمان التاريخي الجامد إلى الإيمان الفعلي المتحرّك، وإن التأمّل المجرّد عن الصلاة مهما بلغ من القوّة في استكشاف وجود الله سبحانه، وجوداً حاضراً يقوم به الكون، واستكشاف وجود رسله وجوداً حاضراً يدعونا إلى الهدى ـ مهما بلغ التأمّل من تقرير هذه الحقائق والبرهنة عليها ـ فإنّه لا يستطيع أن يقدّمها إليك بقوّتها وجدّتها، كما تقدّمها الصلاة...

ذلك أنّ الصلاة تعاملٌ فعلي مع الله عزّ وجلّ وانسلاك فعلي في خطّ رسالته، فهي أقدر على تقديم شعور الارتباط الفعلي به عزّ اسمه، ارتباطاً مطلقاً من ألف وجودك إلى أحرفه الخالدة.

ويا لسعادة الإنسان وروعة الوجود في عيْنيه حينما يعيش شعور الأرتباط الفعلي بالله، والأنسلاك الفعلي في خطّ رسله ورسالته ويمتدّ ذلك من صلاته إلى جوانب حياته، ويا لروعة الأُمّة التي تعيش هذا الشعور وتعمل بمستلزماته في الأرض.

ومن أهمّ المعطيات النفسيّة للصلاة: الدفع العملي.

فلا شكّ أنّ الشخصيّة التي يصنعها الإسلام بعقيدته ومفاهيمه، شخصيّة عمليّة فاعلة... فالله عزّ وجلّ في المفهوم الإسلامي، وجودُ قيّوم يعمل باستمرار، دون أن تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ولا ملل، والكون كلّه يعمل ويسير إلى كماله وغايته، والإنسان مكلّف من الله بالعمل ومهديٌ إلى العمل، ومحاسب على العمل، والتفاضل بين كلّ الناس إنّما هو بالعمل بكميته ونوعيته...

إنّه لا مكان للبطالة أو الكسل في مفاهيم الإسلام، ولذلك لا مكان لكثير من «أُمّة الإسلام الحاضرة» في رحاب الإسلام والروح العمليّة في الشخصيّة المسلمة مدينةٌ ـ فيما هي مدينة ـ للدفع العملي الذي تعطيه الصلاة:

فمن جانب، تقوم الصلاة بنظامها اليومي بالقضاء على الأسباب النفسيّة للكسل والعبث، وحسب الإنسان أن يكون مصلّياً بحقّ حتى ينزع عن نفسه ثوب الخمول واللهو، ويرى أنّه لا متّسع في عمره للتضييع والتقاعس.

ومن جانب آخر، فإنّ الصلاة توقف الإنسان بين يدي الله الدائب في العطاء والرحمة، والتربية للعالمين، وتفتح عينه على الوجود الدائب في

مسيرته، وتُلفته إلى يوم الدين، يوم المسؤوليّة عن العمل، وتجعله يطلب من الله الهُدى والطاقة، في طريق الذين هداهم الله إلى العمل المنتج، وتجعله ينحني أمام الله ويسجّل على نفسه مسؤوليّة العمل، والحساب على العمل... ومثل هذا الجو العامر بالحركة والفعل، يبعث في الإنسان أقوى مشاعر التحفّز إلى العمل والإنتاج.

إنّ الصلاة تقول للإنسان: هذا هو الله، وهذا هو الوجود، وهذا هو الطريق، فامض في خدمة وجودك، ثمّ امضِ ولا تركن إلى كسلٍ أو هوى، إنّ مفاهيم الإسلام عن العمل لتتجسَّد في الصلاة، حقائق ومشاعر متحرّكة... وما أيسر أن تجد ذلك من نفسك أثناء الصلاة وبعدها.

ومن أهمّ المعطيات النفسية للصلاة: شعور الانضباط في الشخصيّة:

والمقصود بشعور الانضباط هو التفات الإنسان إلى تصرفاته اليوميّة الصغيرة والكبيرة، هذا الالتفات الذي يمكّنه أن يُمسك قياد نفسه.

إنّ الأنفعال السريع والتصرّفات المرتجلة من أكبر بلاءات النفس البشريّة، وأحسب ذلك بديهياً عند من يراقب تصرّفاته ويحاسب نفسه عليها، ولذلك فشعور الانضباط لدى التصرّف يعتبر من أغلى ما

نملك، لأنه مِقْود سلوكنا، وسبب خيرنا.

باستطاعتك أن تلاحظ دبلوماسياً عريقاً وهو يتحدّث معك، أو يُدلي بتصريح كيف يَزن كلماته ويختارها، وكيف يقدّر مسؤوليته عنها، وكيف يحاول تركيز المفهوم الذي يريد، والإيحاء الذي يريد...

إنّه يعيش روح المسؤوليّة وشعور الانضباط «بِمقياسِهِ عن المسؤوليّة والانضباط»، وبسبب ذلك فهو يمسك زمام محادثاته وتصريحاته... فكيف لو ملك أحدنا شعور الانضباط بمقياس الإسلام الخيّر الشامل.

إنّ من السهل للإنسان قبل أن يُقدم على تناول طعامه مثلاً، أن يتروّى هذا الوعي، ويستحضر هذا الشعور، ثمّ يقوم بتناول طعامه بهذه الروحيّة، فتراه مؤدّباً في جلسته مرتاحاً لنعمة الله عليه، غير مسرف في طعامه وشرابه...

ولكن إذا كانت مرافقة شعور الأنضباط في وجبة طعام تحتاج إلى مثل هذا الإعداد المسبق، فكم يا ترى تحتاج تصرّفاتنا اليوميّة الواسعة المتنوّعة من إعداد ؟ وكيف يمكن أن يعيش أحدنا تجاه حركة حياته كلّها شعور الوعي والانضباط ؟.

إنّها مشكلة يضاعف منها ازدحام أوقاتنا بالأعمال، وسرعة شخصيّتنا في الانفعال والارتجال، فهل يمكن أن نحصل على شعور الانضباط في كلّ تصرّفاتنا أو جلّها ؟ يرى الإسلام أنّ ذلك ممكن إذا توفّرت الشخصيّة على شحنتين من الوعي والشعور: إحداهما طويلة على مدى العمر، والثانية فعليّة يوميّة.

والشحنة الأُولى هي: مجموعة المفاهيم والمشاعر التي تشكّل النظرة إلى الكون والحياة، والإيمان بالمسؤوليّة والرقابة، والتي يستجليها الإنسان وينمّيها ويرسّخها في شخصيّته، من خلال نضجه في الوعي والشعور والتجارب...

والشحنة الثانية هي: مجموعة المفاهيم والمشاعر التي تقدّمها الصلاة اليوميّة... فإذا ما توفّر الإنسان على هاتين الشحنتين فإنّه دون شكّ سيعيش روح المسؤوليّة، والخشية من الله، على شكل ملكةٍ في نفسه، وطابع في شخصيّته، وسيرافق تصرّفه شعور الانضباط والوعي إلى درجة كبيرة.

ومن عجائب ما نلاحظ في منهج التربية الإلهي، أنّه يؤكّد على هاتين الشحنتين كأساسين لا غنى عنهما للشخصيّة، حتى لتجد مسالة «تعميق

الإيمان» ومسألة «الصلاة» من أُولى المسائل التي اهتمّ بها الله عزّ وجلّ وحثّ عليها الإنسان.

ولا تقتصر فقرات الصلاة التي تعطي شحنة الانضباط السلوكي هذه على التحسيس بالمسؤوليّة ورقابة الله فقط، بل إنّ توزيع الصلاة وتوقيتها، وبالأخصّ توقيت صلاة الصبح بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، ونوعية الوقوف والانتظام في الصلاة، والإقبال والجد المطلوبين... كلّ أولئك يتعاونون على تقديم شحنة الانضباط وترسيخها في النفس.

لا زال علماء النفس يبحثون عن وسائل لضبط الشخصيّة، والحدّ من جِماحها، وإمساك زمامها، حتى يستطيع الإنسان أن يتفادى شروراً كثيرة، ويكسب خيراً كثيراً، وإذا تقدّمت بحوثهم في هذا المجال، فإنّهم لا شكّ سوف يجدون بغيتهم في الشخصيّة التي تعيش حقيقة الإيمان وحقيقة الصلاة، فهذه الشخصيّة هي التي تملك الوعي في التصرّف، والأنضباط في السلوك والتحكّم في العواطف الجامحة.

الفهرس

المقدمة..... ١

الحلقة الأولى.....٣

الحلقة الثانية.....١٥

الحلقة الثالثة.....٢٥

الحلقة الرابعة.....٣٥

الحلقة الخامسة.....٤٧

الحلقة السادسة.....٥٧

الحلقة السابعة.....٦٩

الحلقة الثامنة.....٨١

الحلقة التاسعة.....٩١

الحلقة العاشرة.....١٠١

الحلقة الحادية عشرة.....١١١

الحلقة الثانية عشرة.....١٢١

الحلقة الثالثة عشرة.....١٣١

الحلقة الرابعة عشرة.....١٤٣

الحلقة الخامسة عشرة.....١٥٥

الحلقة السادسة عشرة.....١٦٥

الفهرس.....١٧٥